بنت النيل

ندي نجم

بنت النيل

ندي نجم

تصميم الغلاف : عبير محمد

تدقيق لغوي : عبدالله أبو الوفا

رقم ايداع:

ترقيم دولي:

دار فصلة للنشر والتوزيع

العزيزيه - منيا القمح - مصر

٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

fasla.pub@gmail.com

FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الاولي يناير ٢٠١٨

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

بنت النيل

ندي نجم

فصلة للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

إلى شمعة قلبي وأثير فضائي
إلى أمي العزيزة وأبي الغالي ...
إهداء إلى الأسرة الطيبة
وكل من دفعني بصدق نحو الأمام ...
" حفظكم الله "

هذه حكاية علمتني القليل عن الحياة.
علمتني أن الحياة ما هي إلّا أيام نعيشها سريعًا ونغادرها على حين غفلة.
علمتني أن نحب الخير وأن نكره الشر لغيرنا كما نفعل لذواتنا، وأن نحترم الناس ونتواضع في أفعالنا.
علمتني احترام مشاعر المحب ومعاملته برفق ولين.
علمتني الصدق وحفظ الوعد.

وأخيرًا،

لقنتني درسًا غاليًا، تعلمت منه أن الرفق ليس ضعفًا، ولكنه خُلق عالٍ.
وبالمقابل فإن القسوة ضعف؛
وأحيانًا حبٌ خفي.

وفي النهاية؛

علمتني كيف أكون إنسانًا.

لم يكن الحب يومًا لوحة مشوهة الدهان رديئة الألوان.
فلا بد من قلب نابض بالعاطفة لنحيا.
الحب لله ورسوله، وللوطن، وللعائلة والأقارب والأصدقاء، ولكل ما يبعث الخير في الحياة.
ويبقى الانتماء لكل ما سبق خير شعار للحب.

(١)

على أرض مصر، وتحديدًا في مدينة سوهاج، وعلى جانب من جوانبها الزراعية المنعزلة؛ كُتب قدرٌ جديد.

كانت المحاصيل الزراعية تحيط بالمنازل في تلك المنطقة، وفي منطقة أبعد قليلًا كان هناك مصدر الري الأول بمصر وشريان الحياة بها، نهر النيل.

كانت عائلة يوسف وجدي يسكنون في بيت هناك، يوسف نبيل بخُلقه وسيم بخَلقه، وأما زوجته أماني فهي ربة منزل مثالية، بشوشة الوجه جميلة الطلعة، يحبها كل من يعرفها، أما ياسر ابن السبعة أعوام وأخته فاطمة التي أتمت العاشرة منذ شهرين، فهما نِعم الولدين البارّين بوالديهما.

وفي إحدى غرف ذلك المنزل الدافئ، هناك دائمًا ما يجعله متناقضًا وغريبًا، هنالك فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تدعى مريم، متربعة على أرض مملكتها الخاصة، كانت قطع الحديد والبلاستك والسلوك وعدّتها لصناعة الأغراض متناثرة هنا وهناك مشوهة منظر الغرفة، وقد كانت في قمة انشغالها بإنهاء صنع طائرتها التي أطلقت عليها اسم
(FN٦٠٠٠).

المزعجة، هكذا يسميها من يعرفها، وإضافة إلى ذلك المتكبرة والمتغطرسة وغريبة الأطوار، وقد كانوا محقين حيث لم تكن مريم تحترم كبيرًا أو صغيرًا، ورغم أنها تعيش في كنف عائلة مسلمة ومتدينة، إلا أنها لم تكن تنتمي بأفكارها العدوانية ومعاملتها الفظة إلى عائلة كريمة مثلهم، كانت تتلذذ بإيذاء الآخرين، وتجد متعتها في الخروج عن القانون أيًا كان.

ولكن الحقيقة أن مريم كان بها جوانب إيجابية أيضًا؛ فهي تكتب القصص والروايات الغامضة، وإضافة إلى ذلك فإنها تحمل عنصرًا مميزًا اختلفت به عن باقي أفراد الأسرة، حيث تتقن صناعة الأشياء منذ صغرها، ففي إحدى المرات

صنعت عبوة ما أن تضع فيها السوائل حتى تقوم بالتحول إلى مادة صلبة أو هشة كالمثلجات، وعندما كانت في السابعة، صنعت قلمًا يحوي أربعة ألوان حبر وممحاة وبراية وقلمًا رصاص، وقد صنعته لأنها تكره حمل مقلمة عند ذهابها للمدرسة، وحاولت صنع طائرة لمدة خمس مرات على التوالي، ولكنها كانت تفشل دائمًا، وفي المرة السادسة صنعت طائرة وظنت أنها الأفضل على الإطلاق.

"رائع! ها قد أنهيت صنعك، لقد أتعبتيني يا قطعتي الفنية".

هكذا همست وهي تقوم بوضع طائرتها في حقيبة ظهرها بجوار جهاز التحكم، ثبتت الحقيبة على كتفها وذهبت تسابق الزمن على درجات السلم، أوقفها أبوها، الذي كان على وشك خروجه إلى مزرعته ككل يوم، مبتسمًا:

- مريم، ألم نناقش موضوع ركضك على السلم بتلك الطريقة؟

ابتسمت متصنعة عدم التذكر:

- حقًا! لا أظن.

- هيا عودي أدراجك وانزلي كما الآنسات.

ضجرت مريم وهي صاعدة ونزلت تخطو كما أراد أبوها، الذي قال مبتسمًا بعد أن خطت آخر خطواتها على عتبة السلم وكأنه قد رآها الآن لأول مرة منذ استيقاظها:

- صباح الخير آنستي.

- صباح الخير سيد بابا.

- ما هذا الأدب يا ناس؟

- نتعلم منك يا والدنا العزيز.

قالتها ضاحكة وغمزت راكضة نحو المطبخ.

- بنت، تعالي.

أضاف هامسًا لنفسه بعد نفس عميق:

- هذه الفتاة كما يقولون، هي القشة التي قصمت ظهر البعير، يا رب صبرني.

في مطبخ المنزل كان هناك حوار صباحي قد بدأ منذ فترة قصيرة، كانت السيدة أماني جالسة أمام الفرن تعد الفطائر الصباحية.

- صباح الخير كوماندو.
نظرت أماني إلى ابنتها وقالت باقتضاب:
- ناوليني الخميرة من على الطاولة يا مريم.
ناولتها مريم الخميرة وقالت ضاحكة:
- لا يعقل، هل ما زلت غاضبة مني؟
سحبت الوالدة الخميرة من يدي مريم وقالت معاتبة:
- وسأظل كذلك حتى تصلي الصلوات الخمس بانتظام.
- أمي، إنها صعبة جدًا، لماذا ليست واحدة أو اثنتين؟
صعقت أماني من رد ابنتها وقالت في حسرة:
- أتعترضين على أمر مكتوب؟ إن الصلاة التي تصلينها هي طريقة شكر لله على نعمه لفتاة مستهترة مثلك.
نظرت إليها مريم بملل وقالت:
- معك حق، سآخذ اثنتين من تلك الفطائر للفطور، لن أفطر اليوم في البيت.
انتظرت مريم عشر ثوانيَ حتى تسمع أمها وهي تسألها: "إلى أين العزم؟"، كما كانت تفعل دائمًا، ولكنها لم تسألها. "واضح أنها غاضبة للغاية "، هكذا حدثت نفسها، لذا أخذت مريم الفطائر وهمّت بالخروج، ولكن والدتها قاطعت خروجها باستياء:
- مريم.
- ها؟
- صلي الفجر قبل خروجك.
- سأفعل، حاضر.
في الصالة كانت فاطمة تشاهد التلفاز وياسر يلعب بسيارات التسابق، لاحظ ياسر أنّ أخته بالجوار فقفز إليها وقال بابتسامة عريضة:
- صباح الخير.
- أهلًا، ماذا تريد؟
- لقد وعدتيني أن تصلحي عربتي، هل فعلتي؟

- لا، لم أصلحها، أنا مشغولة جدًا، ولن أشغل بالي بعربتك التافهة، لذا انس الأمر.
نظر إليها ياسر بانكسار وذهب يبكي عند والدته بحرارة.
كانت فاطمة تركز بشدة في شاشة التلفاز، أرادت أختها أن تحدث بعض المشاكل فأمسكت جهاز التحكم وأغلقت التلفاز فجأة، ثم وضعت جهاز التحكم في مكان لا تصل إليه فاطمة التي كانت قصيرة القامة.
نظرت فاطمة إلى مريم بحدة وصاحت بها:
- ماذا فعلتي؟ لقد كانت اللقطة المفضلة.
- أعلم، ولهذا أغلقته.
أخذت فاطمة تقفز محاولة الوصول إلى جهاز التحكم، واستغلت الأخرى الفرصة قبل أن تشتعل المشاكل عند الوالدة وأخذت الحقيبة وهمّت بالانصراف.
لاحظت فاطمة أن أختها خارجة دون ارتداء حجاب الرأس فقالت محاولة إغاظتها:
- إذا علمت أمي أنك خرجت دون الحجاب فمن المحتمل ألا تدخلي المنزل اليوم.
نظرت إليها مريم بغلّ وارتدت الحجاب وخرجت متجاهلة صلاة الفجر، وفور خروجها تناهى إلى سمعها صوت بكاء ياسر وشكوى فاطمة عند والدتها التي طفح بها الكيل من ابنتها، أخذت الأخيرة تضحك وهي تسير متجهة نحو نهر النيل في المنطقة، فهناك ستطير التجربة السادسة لطائرتها.
مرت مريم بأبيها في مزرعته التي يعمل بها، كان والدها معتادًا على الذهاب إلى مزرعته صباح يوم الجمعة ليجلس مع صديقه، فقد كان اليوم يوم إجازة لجميع العمّال، سألها عن مقصدها فأخبرته عنه، وقبل أن تذهب أمرها ألا تبتعد.
كان الأب هو الشخص الأقرب إلى إقامتها وحدها دائمًا، فهي تحبه وتهابه، أما أمها فكانت تريد أن يكون لابنتها نصيب من تعلم الأعمال المنزلية كباقي الفتيات في مثل سنها، ولكن مريم كانت دائمًا ما تتكاسل عن إنجاز تلك الأمور، وإذا حدث وفعلتها تكون مصنوعة بطريقة عشوائية، جربت أن تعاقبها بكثير

من الطرق التربوية ولكنها عادة ما تأبى أن تستقيم وأن تستمع لإرشادات أمها، لم تكن للسيدة أماني وزوجها إلا الدعاء لله أن يصلح ابنتهما لما هو أقوم.

وصلت الفتاة عند النهر وأخرجت الطائرة من الحقيبة، في هذه المرة كان عليها تثبيت بعض الأجزاء كالمراوح والفرامل ومقدمة الطائرة لتتفادى سقوطها، كما حدث لباقي تجاربها في المرات السابقة، وبالفعل ثبتت تلك الأجزاء وبدأت التجربة.

"طارت، طارت، طارت ". أخذت تردد هذه الكلمة ما أن طارت الطائرة، كانت سعيدة كطفلة أعطتها أمها قطعة حلوى، فهذه هي أول جولة للطائرة على اليابسة، والآن يختلف المسار؛ بثاني جولة وجهت مريم الطائرة نحو نهر النيل، طارت هناك لمدة نصف دقيقة ثم سرعان ما بدأت بالهبوط شيئًا فشيئًا، حتى ارتطمت الطائرة بسطح النهر، وسحبتها المياه للأسفل، لم تفكر طويلًا واتخذت قرارها وأخذت تسبح نحو طائرته.

كان موقعها بنصف النهر تقريبًا، وهي مبتدئة في السباحة، حيث بدأ والدها يعلمها منذ فترة لم تتجاوز الأسبوعين، ورغم ذلك سبحت نحو الطائرة وأمسكت بها وهمّت بالخروج نحو اليابسة وهي تجر أذيال الخيبة خلفها لفشل طائرتها.

كان الموج عاليًا في ذلك اليوم، إنه يوم الجمعة والناس في بيوتهم نائمون كالأشباح أثر أعمال الدوام المتعبة، الرياح تهب فيسمع صوتها، فمن بإمكانه أن ينجد سائلًا؟ في وقت قصير جدًا عاد النهر كما كان خاليًا من البشر، لم تكن مريم قد عادت إلى اليابسة، فقد تولّى النهر الأمر ساحبًا إياها نحو القاع، طوفان من المياه اجتاح فمها وأنفها وأشبع رئتيها بدون رحمة، ظلام مبهم غلّف محيطها ودفن حواسها فباتت في سبات عميق.

وها هي الآن تغرق.

(٢)

في مكان ما مبهم الموقع تواجدت فتاة ملقاة على الأرض.
كان قد أغشي عليها، حين استيقظت أخذت تتلفت يمنة ويسرة، الحشائش الخضراء تفترش الأرض لترسم لوحة بديعة للطبيعة، نظرت حولها فرأت أشجارًا فارعة الطول، الأشجار تحيط بها من كل ناحية كأنها تشكلت على هيئة دائرة ومركزها هي في الوسط، شعرت بالماء يتساقط من الأعلى فنظرت هناك ورأت ما هو عجيب، كانت هناك غيمة كبيرة يتوسطها الماء والأسماك يخال إلى الناظر أنها حوض أسماك، كان الماء يتساقط منها رويدًا رويدًا حتى بدأ حجم الغيمة بالتقلص شيئًا فشيئًا حتى اختفت الغيمة تمامًا، من خلفها ظهرت السماء الملبدة بالغيوم، لوهلة ظنت مريم أن الوقت ليلًا حتى اختفت تلك الغيمة وظهرت أشعة الشمس.
قامت من مجلسها وأخذت تتلفت حولها، كان المكان هادئًا لدرجة قد تمكن الإنسان أن يسمع صوت نملة أوقعت طعامها وهي سائرة، وكان الهواء عليلًا، أما مريم فكانت قد نسيت الأحداث التي حدثت لحوالي دقيقة، ولكن بعد وهلة قصيرة تذكرت دخولها للنيل وغرقها المفاجئ، ثم قدومها هنا. نظرت خلفها فوجدت طائرتها التي سقطت معها وهي شبه محطمة، وضعتها في الحقيبة وراحت تجول بنظرها في المكان، شعرت بالجوع يفتك بمعدتها وأنها تحتاج لوجبة طعام تعيد نشاطها، لمحت من على بعد أربعة أمتار شجرة ثمارها على هيئة غريبة، كانت الحبات بيضاء ويتوسطها نقط سوداء كالعين تمامًا، خمنت مريم أنها شجرة توت.
اقتربت منها لتأخذ واحدة ولكنها كانت قد قرأت مقالًا عن بعض أنواع التوت المسممم، تذكرت أنها كانت قد اشترت كتابًا يسمى "حبة من توت " ووضعته في الحقيبة فور شرائها له، همّت أن تخرجه ولكنها تفاجأت بسماع صوت امرأة

عجوز قادم من خلفها:
- مرحبًا بالزوار.
تلفتت مريم بسرعة وقالت مرتابة بعد أن تتراجع إلى الوراء:
- من أنت؟
- أنا من أسأل هذا السؤال، فأنت في موطني.
- أنا مسالمة، بالمناسبة أين نحن؟
أجابت المرأة العجوز بسحنتها الهادئة:
- نحن في أرض الله الواسعة.
- ليس هذا سؤالي، ما تلك البلد التي أنا أمشي على أرضها؟
- لا يفترض أن تسافري إلى مكان لا تعرفينه يا فتاة.
قالت مريم منفعلة:
- أنا لم أسافر يا ذات الوجه المجعد، لقد وجدت نفسي هنا دون إرادتي.
- هذه بلاد كلودا يا فتاة، المخلوقات هنا صنفان طيبون ويبغضون الظلم أو ظالمون ويفتكون بالطيب.
قالت مريم بعدم فهم:
- ماذا تعنين؟ أنا لم أغادر مصر حتى أذهب لبلدة أخرى.
تجاهلت جملتها قائلة:
- ستتعبين جدًا مع الصنفين يا فتاة النيل.
صاحت مريم وكأنها قد تذكرت لتوها تفاصيل الحادث:
-نعم النيل، أنا من هناك، لا بد أنك من أحضرتيني إلى هنا.
قاطعتها العجوز متجاهلة طريقتها الفظة:
- أول درس احترام الناس وعدم جرح مشاعرهم.
- هل أفتح الكتاب؟ تبًا لهؤلاء العجائز، يتكلمن بكلام مثل الألغاز.
أضافت العجوز غير مبالية بحديثها:
- الكفن ثلاث؛ الولادة ثلاث؛ وما بعد النوم مرة.
قالت هذه الجملة ثم تورات بين الأشجار على غفلة من مريم، كان الأمر أشبه

بالشعوذة، حاولت مريم أن تفسر الأمر ولكنها لم تفلح، لذا حاولت أن لا تهتم كثيرًا وتحاول العودة إلى موطنها بنفسها، توقفت قدماها عن الترجل فجأة، أبصرت أمامها سورًا بالغ الطول والعرض، تذكر جيدًا أنها نظرت هناك فلم تره، كان يشبه سور الصين العظيم، ذهبت هناك متمهلة وأخذت تطرق بأناملها عليه وكأنها تتأكد من صدق ما تراه.

همست:

- لا بد أنني لم ألحظه حين وصلت.

أجابت نفسها وكأنها تحدثها:

- لم يكن موجودًا، لقد رأيتيه الآن لأول مرة يا مريم، هذا حقًا لا يهم، ليس هذا بالأمر الغريب الأول في هذا المكان، هناك تلك الغيمة والعجوز المختفية، ومن يدري، قد ألتقي بدودة طائرة.

جلست مريم القرفصاء مسندة ظهرها أمام السور، أخرجت كتاب التوت وأخذت تبحث عن صورة التوت الماثل أمامها، وفجأة وبدون سابق إنذار، ابتلع الجدار مريم ومرت خلاله للجانب الآخر. كانت كشيء غير مرئي، وقفت تهندم ملابسها ثم تلفتت حولها بذهول، كان هناك قصر مهيب، بناؤه جميل ومزخرف، ولكنه كان مظلمًا وكأنه مهجور، لم يكن هناك أطفال يلعبون ويركضون خلف بعضهم البعض ويصدرون الضجيج، لم تر أمًا وأبًا يحيون شمعة المنزل، ولا رأت مراهقين يحضرون أصدقائهم ويحتفلون، لا يوجد خدم يروحون ويجيئون لينظفوا القصر، كان القصر متربًا، للحظة شعرت مريم بالاشتياق لعائلتها، ولكنها نفضت عنها هذا الشعور والتفتت تحاول العبور عبر السور ولكن دون جدوى، فقد كان الحائط صلبًا جدًا كالفولاذ تمامًا، التفتت مجددًا وتوجهت نحو القصر لتكتشف محتواه، طرقت الباب بقوة فلم يفتح أحد، حاولت فتحه ولكنه كان موصدًا بقوة، سكنت قليلًا فلقد سمعت صوتًا محبوسًا، وكأن أحدهم يطلب النجدة، كان صوت فتاة قادمًا من الفناء الخلفي الخاص بالقصر، توجهت مريم هناك مسرعة، كانت فتاة في نفس سنها تقريبًا ترتدي فستانًا داكن اللون ومنفوشًا كفساتين الأميرات؛ عندما يشعرن بالاكتئاب لأن الأمير الوسيم لم يعد يفكر فيهن

ويود الزواج بأخرى، كانت الفتاة تحاول مقاومة ثعبان يهاجمها، مباشرة وبدون تفكير أخذت مريم عصا من على الأرض وأخذت تضرب الثعبان بجل قوتها حتى انقطع نفسه، جلست على الأرض تتنفس الصعداء والثعبان ينزف الدم، لم تلتفت إليها مريم فقد كانت منهكة، قالت الأخرى بتلعثم:

- مرحبًا، أنا جوليا، شكرًا، شكرًا لمساعدتي.

- أهلًا.

عم الصمت لفترة فكسرت جوليا الحاجز قائلة:

- ما اسمك؟

- مريم.

- أهذا اسم؟

- لقد سألتيني ما اسمك، من البديهي أن يكون اسمي.

- لم تتكلمين بأسلوب جاف؟

تجاهلت مريم سؤالها وحادثتها بآخر:

- أين يقع هذا القصر؟ في أي بلد؟

- لا أعلم حقًا، ولكن نحن في بلاد كلودا.

تذكرت مريم احتفاظها بفطيرتين في حقيبتها فلامت نفسها أنها لم تتذكرهما منذ البداية، أخرجت الفطيرتين وكان الجوع يفتك بمعدتها، أخذت واحدة وبدأت بالأكل وجوليا تنظر إليها.

- ما هذه؟

سألتها الأخيرة بفضول، فلم ترد عليها مريم، ولكنها أعطتها واحدة، بمنظور مريم لم تكن هدية ولكن مجرد عربون لتعلم المزيد عن هذا المكان، تناولتها جوليا بنهم وقالت:

- تشبه الفطائر التي كانت تخبزها أمي.

- وأين هي؟ أنا جائعة، أريد طعامًا.

- ليس هناك أحد في القصر، أنا فقط.

أضافت بحزن:

- الجميع سافروا، مهلًا، لقد كنت جائعة ورغمًا عن هذا أعطيتني فطيرتك، أنت، أنت رائعة.
- أعلم.
- حسنًا، لدي طعام في المطبخ يا صديقتي.
همّت مريم أن تقول: "لست صديقتك"، ولكنها آثرت الصمت، ودخلت الفتاتان القصر وأخذت جوليا تشعل جميع الأضواء وتضع الطيب زكي الرائحة وتفتح الموسيقى، كانت تبدو سعيدة بشكل أخرق، كما وصفتها مريم، ذهبتا إلى المطبخ وكان شاسع المساحة، وهنالك الفطائر والعصائر والحلوى والكعك والكثير مما لذ وطاب، أخذت مريم تأكل من كل الأصناف وجوليا تراقبها مبتسمة.
أخبرتها جوليا أنها ستذهب إلى غرفتها وترجع سريعًا، أومأت مريم برأسها وظلت تأكل بنهم حتى أنها عبأت الحقيبة من تلك الأصناف حتى صار إغلاقها صعبًا، دخلت جوليا مبتسمة وقد بدلت ملابسها الداكنة والتي غالبًا ما تدل على الحزن إلى أخرى مشرقة وزاهية.
- هل أعجبك الطعام؟
- لذيذ، كيف تأتيك كل هذه الكميات الهائلة من الطعام ولا أحد يسكن معك في البيت؟
- لا أعلم حقًا، أدخل المطبخ فأجد الطعام يتغير يوميًا، كانت أمي تقول إن البيت مسحور ويهتم بنزلائه الطيبين.
أطرقت مريم برأسها وقالت:
- مثير للاهتمام، ولكن، ها، أعتقد أن البيت قد أخطأ بوصفي، فأنا لست طيبة.
قالت جوليا على الفور:
- أنا أراكِ طيبة، ولكن دعيني أشرح شيئًا، إن البيت يهتم بي لأنني طيبة، هكذا قالت أمي، أنت ضيفة لدي ولا بد أن يكرمك البيت.
- آه جيد، شعرت لوهلة أنني سوف أُظلم هنا، بالمناسبة لماذا بدلت ملابسك؟
- أشعر بالسعادة.
- وأنا أشعر بالشبع، آه، لقد انتفخت معدتي.

- دورة المياه بالجانب الأيمن من باب المطبخ.
ذهبت مريم لدورة المياه وغسلت يديها واستحمت، مكثت فترة طويلة هناك وعندما خرجت واضعة المنشفة فوق رأسها رأت جوليا واقفة أمام الباب تبتسم بسذاجة.
- منذ متى وأنتِ هنا؟
- ساعتين، لقد أطلت المكوث في الداخل.
- أنت غريبة.
- أنا سعيدة بوجودك.
- حسنًا، أريد النوم الآن.
- لقد جهزت لك سريرًا في غرفتي.
- لا، أحب النوم وحدي.
تركت مريم جوليا تقف أمام دورة المياه متجاهلة تعبيرات وجهها الحزينة، وأخذت تجول في القصر، فوجدت غرفة كبيرة بها سرير مرتفع يبدو مريحًا، على الفور وثبت فوقه فشعرت براحة لم تشعر بها من قبل، دخلت جوليا ونظرت إليها، فسألت:
- لمن السرير؟
- لوالديّ.
- سأنام عليه.
- ولكن هذا لوالـ
وقبل أن تكمل قالت مريم بلهجة حاولت أن تصبغها بالود:
- شكرًا لكِ، أنت فتاة لطيفة.
- أنا لطيفة، وأنتِ حقًا كذلك، تصبحين على خير، سأظلم الغرفة وأرتب السرير لكِ.
همست مريم لنفسها ساخرة:
- هه، تلك الفتاة حقًا ساذجة.
نامت الأخيرة ليلة هنية على هذا السرير، ودّت لو أن النهار يصبح ليلًا حتى

تنام أكثر فترة ممكنة، ولكن الشمس قد سطعت في السماء وسلّطت أشعتها لتخترق جوانب الغرفة حتى أصبح النوم مستحيلًا.

(٢)

في بيت السيد يوسف وجدي كانت السيدة أماني قد أنهت خبز الفطائر وهمّت بإغلاق شعلة الفرن، حين ركض إليها ياسر وأخبرها أن هناك رجلًا يطلبها على عتبة باب البيت، سألته أماني بتعجب:

- هل أخبرك ماذا يريد؟

أجاب نافيًا:

- لا، ولكنه أخبرني أنه يريدك في أمر طارئ للغاية، ويبدو عليه القلق.

- طارئ، أحضر لي حجاب الرأس من غرفتي يا بني، أسرع.

- حسنًا.

خرجت أماني لترى أمر هذا الرجل الغريب، كان يطرق الباب كل ثانية قبل خروجها، وأخذ يفعل ذلك حتى خرجت.

- ها أنا ذا، عفوًا، ماذا يكون أمرك الطارئ؟

- سيدة أماني، أنا صديق زوجك، كنت جالسًا معه هذا الصباح في المزرعة حتى جاءت طفلة تخبرنا أنها رأت ابنتك مريم، قالت إنها رأتها تلعب عند النهر ثم دخلت فيه.

لم تتمالك أماني أعصابها وأخذت تصيح بالرجل الذي توتر وأخذ يكفكف عرقه بمنديل في يده:

- ثم ماذا؟ ماذا حدث لمريم؟ أصابها مكروه أليس كذلك؟ فقط أخبرني.

- تماسكي سيدتي، أنا حقًا لا أجيد التمهيد، لقد غرقت ابنتك وهم يبحثون عن جثتها الآن ولم يجدوها بعد، إن يوسف هناك، ولكن إن وجدوها في الدقائق التالية فإن فرصة نجاتها يمكن أن تتزايد بإذن الله.

كادت السيدة أماني أن تصيح وتنفلت من توازنها، ولكنها همست داعية بأن ينجي الله ابنتها، كان لديها من الإيمان ما يجعلها تصمد لفترة في هذه المحنة.

- شكرًا لك سيدي، أنا سوف أذهب إلى هناك الآن.

أخبرت أماني أولادها أنها سوف تخرج ولن تتأخر عنهم كثيرًا، خرجت حتى وصلت هناك وكان زوجها في النهر والكثير من أهل المنطقة قد لازموه في البحث أيضًا، جلست هي بجانب شجرة وأخذت تناجي الله بالدعاء لابنتها.

*****

على زاوية من أرض كلودا وفي قصر الفتاة جوليا، كانت مريم قد استيقظت منذ قليل وجلست على السرير شاردة في ساعة يدها، دخلت جوليا مبتسمة وأشارت إلى مريم:

- صباح الخير ضيفتي.

قالت مريم بغضب:

- لا أحب أن يدخل أحد غرفتي دون أن يطرق الباب.

- أنا حقًا آسفة، ولكن هذه غرفة والديّ وقد تعودت دخولها مرات عديدة باليوم، ونسيت أن أطرق الباب.

- وهي غرفتي الآن حتى أرحل.

- هل سترحلين؟

لمحت مريم حزنًا في جملتها الأخيرة، وظنت أنها إن أخبرتها أنها سترحل، فإنه من الممكن ألا تخبرها بالمعلومات التي تريد الوصول إليها، لذا قالت:

- حسنًا، أفكر بالبقاء لفترة أطول.

- حقًا، لقد جهزت الفطور في الفناء الأمامي.

همست مريم لنفسها:

- ها، يبدو أنني سأعيش برفاهية لفترة من الزمن.

- ما بها يدك؟ شاردة بتلك القطعة الملتفة حولها؟

أجابتها مريم بذهول:

- ألا تعلمين باختراع يسمى الساعة؟

- لا، ما هو عمل تلك الساعة؟

- في أي سنة نحن؟

- السابعة عشر بعد الألفين.
- همست مريم متعجبة:
- لماذا إذن لا أرى أي تقدم بالقصر؟
ثم قالت بصوت مسموع ممتزج بالغرور:
- هذه الساعة تخبرك الوقت في عالمنا، ولكن منذ أن جئت إلى هذه البلاد الملعونة لم تعد تعمل، وكأن الوقت توقف.

****

في الجانب الأمامي للقصر، تفاجأت مريم بشيء غريب جدًا، كان السور الذي نقلها إلى هذه المنطقة قد اختفى، وكأنه لم يكن وظهر خلفه جبال خضراء طويلة تغطي الأفق، زادت دهشتها عندما علمت أن القصر يقع على جبل قمته مسطحة تمامًا، أخذت الأخيرة كرسيًا ووضعته على حافة قمة الجبل، كان المنظر خلابًا، هناك نهر بجوار سفح الجبل، وخلفه تلك الجبال الخضراء الطويلة التي تغطي الأفق، نظرت في كل مكان حولها فرأته كذلك، مجرد جبال طويلة خضراء تغطي الأفق.
- لماذا أنت شاردة يا مريم؟ ألا يعجبك المكان؟
- إنه مكان غريب جدًا، ماذا هناك خلف هذه الجبال يا جوليا؟
كانت هذه المرة الأولى التي تنطق بها زائرتها باسمها، جوليا، أعجبها أن يناديها شخص باسمها، لمعت عيناها فزادت جمالها جمالًا.
- كانت أمي تقول إن تلك الجبال ما هي الإ طريق لمناطق ومدن وقرى أخرى في بلاد كلودا، لكن لا أحد يستطيع المرور لمنطقة أخرى غير تلك التي ولد بها، إنه أمر مستحيل تمامًا.
قاطعتها مريم بعلو:
- ها، لماذا؟ أنا أستطيع فعل ذلك، ليس صعبًا.
- ليس الأمر كما تظنين يا صديقتي، سأحكي لك.
صمتت قليلًا ثم قالت:
- منذ زمن بعيد جدًا، كانت هناك ملكة طيبة تحكم هذه البلاد، بلاد كلودا،

لم تكن تلك الجبال موجودة، كانت أراضٍ خضراء، كانت المدن والقرى متلاصقة والمخلوقات جميعها تزور بعضها البعض من كل المناطق، أنجبت الملكة فتاة وحكمت بلاد كلودا بنفس نهج أمها، ولكن المصيبة الكبرى كانت عندما أنجبت الملكة الثانية ابنة، كانت تتعلم السحر والشعوذة منذ صغرها، وحين كبرت وصارت حاكمة هذه البلاد أحبت رجلًا فاحش الثراء والوسامة من المنطقة الشرقية، أرادته زوجًا لها ولكنه رفض لأنه أحب ابنة عمته.

كانت ابنة عمته شابة حسنة بكل مقاييس الجمال الشرقي، حتى أنها جاوزت جمال الملكة، استشاطت الملكة غيظًا وغلًّا وتوعدت بالانتقام، كانت تلك الملكة مجنونة بمعنى الكلمة.

مرت الأشهر وأنجبت زوجة الرجل فتاة كالقمر ليلة اكتماله، وفي ذلك العام انقلبت تصرفات الملكة رأسًا على عقب.

فرقت بين الرجل وزوجته؛ حيث وضعت الزوجة وابنتها الرضيعة في منطقة معزولة عن العالم، وتركت الرجل يصارع مرضًا دبرته له، وليتها اكتفت بذلك، بل إنها قامت بتحطيم قوة هذه البلاد: الجماعة. وضعت من سحرها بين الطرقات الموصلة لكل منطقة بالأخرى، حتى أصبحت الطرق وعرة ومستحيلة العبور، بعض المخلوقات جربت العبور ولكنهم، كما كنت أسمع أمي تقول، لم يظهروا مجددًا، كانت الصواعق التي سخرتها الساحرة عند الجبال تفتتهم، وليتها اكتفت بذلك فقط، بل تمادت الملكة فقتلت جميع من يسمون باسم ذلك الرجل الذي أرادت الزواج منه، كانت شريرة جدًا، ومجنونة.

سألتها مريم:

- كانت!! هل ماتت؟

- نعم، منذ زمن، لكن سحرها لم يمت، كانت هناك أسطورة تداولتها المخلوقات عن محاربة ستأتي إلى هذه البلاد مؤهلة لاكتشاف قيمة مفقودة تعيد بها وحدة بلاد كلودا وتفك سحر المشعوذة، كانت أمي تخبرني أن تلك المحاربة هي الوحيدة التي بإمكانها التنقل بين المناطق، ولكنها لم تظهر بعد.

صمتت لوهلة ثم سألتها:

- كيف وصلتِ هنا يا مريم؟ أنت غريبة عن تلك المنطقة.
- لا أعلم حقًا، إذن أنا المحاربة!
- إنها أسطورة لا يعلم أحد بصدقها حتى اليوم.
فجأة تشنجت مريم ألمًا فسألتها جوليا بتوتر:
- مريم، ما بك؟ إن وجهك أصفر، هل أنت متعبة؟
أغمضت مريم عينيها طويلًا وسكنت للحظات، ثم تحركت فجأة ووضعت رجلًا على رجل وقالت بغرور مغيرة نبرة صوتها:
- جوليا.
- أجل يا مريم، هل أنت بخير؟ لقد خفت عليك كثيرًا، أرجوك قولي إنك بخير.
ثم أخذت تبكي، فقالت مريم بلهجة جديدة عن الأخيرة:
- دلكي كتفي يا فتاة.
نظرت جوليا إليها وقامت من فورها تفعل ما أمرتها به، أخذت جوليا تدلك كتفها لمدة طويلة بدون كلل أو ملل، ثم تفاجأت بمريم تأمرها بتكبر أن تحضر لها الحلوى من القصر.
وبدأت مريم تأمر جوليا بالأوامر تلو الأوامر والفتاة المسكينة تنفذ أوامرها خوفًا من الوحدة، حتى جلست جوليا على الكرسي أخيرًا، كانت مريم خارجة من المطبخ حاملة سكينة مدببة، كانت تضحك بهستيرية، وقفت مريم أمام جوليا التي ملأت صدرها خوفًا، لوحت بالسكينة ثلاث مرات في الهواء ثم قالت موجهة إياها نحو عنقها:
- سنلعب لعبة، ألوح بالسكينة ثلاث مرات بالهواء ثم.
- مريم، ماذا تفعلين؟ أنت لستِ بوعيك.
- أنا كذلك يا فتاة.
وفجأة وبدون سابق إنذار جثت مريم على الأرض وأخذت تصرخ بشدة، قامت جوليا واختبأت خلف زاوية من زوايا القصر تراقب مريم، سكنت الأخيرة للحظات ثم قامت وجلست على الكرسي الموجود على حافة قمة الجبل بصمت، وكأن شيئًا لم يكن، مرت ساعتان حتى اقتربت جوليا من مقعد مريم وتنحنحت

لتلفت انتباهها:
- مريم.
قالت مريم محاولة إخفاء أسفها:
- أنا لم أقصد ما فعلته خلال الساعات الفائتة، لم أكن بوعيي.
- مريم، أنا لست حزينة، أنا حقًا أسعد مخلوقة بوجودك هنا، ليس كل يوم يمر عليّ زوار ولهذا أظنك محاربة.
وفجأة سُمع صوت دوي عظيم يشبه الرعد قادم من الجبال في جهة الجنوب، انتفضت مريم لهذا الصوت فقالت جوليا وكأنها تعودت على سماعه دائمًا:
- لا تخافي، هذا مخلوق من المنطقة خلف تلك الجبال، يبدو أنه متهور للغاية، أراد عبور طريق الجبال فناله سحر الملكة.
- أنا لست خائفة.
قامت مريم وتلفتت حولها مشيرة لمكان السور غير الموجود:
- سأبحث عن مخرج، لن أبقى يومًا بتلك البلاد الملعونة.
قالت جوليا مصدومة:
- ولكن، ظننتك صديقتي الوفية.
- لست صديقتك ولن أكون يومًا كذلك يا فتاة.
- حسنًا، على الأقل خذيني معك إلى بلادك، ستكون أهون علي من ظلمة هذا القصر الموحش.
- لا، شخص واحد أسرع في الترحال.
- ولكن.
لم تنتظر مريم حتى نهاية الحوار. قامت من فورها وذهبت عند موقع السور المختفي وأخذت تطرق على الأرض وترفع الصخر عسى أن تجد المخرج، ترقرق الدمع في عين جوليا ثم انحدر كالسيل الجارف، جلست على الكرسي تستوعب ما دار بينها وبين مريم، جلست بضع دقائق ساكنة لا تحرك ضلعًا، حتى قامت وجففت دموعها وذهبت نحو مريم تخطو خطوات واثقة:
- مريم.

التفتت مريم لتجدها تبكي فقالت ساخرة:
- تبكين كالأطفال إذا؟!
قالت جوليا متجاهلة سخريتها الحادة:
- اسمعيني، كانت أمي تحتفظ بكتاب به طريقة الخروج من بلاد كلودا، هو يخص المحاربين فقط، أنا متيقنة أنك محاربة، لذا فسوف أهديه لك.
- محاربة؟ هذا من حسن حظي.
أشارت جوليا نحو الكرسي على حافة الجبل وقالت:
- لا داعِ لتعبك الآن، استريحي حتى أحضر الكتاب من القصر.
أومأت مريم لها بالموافقة وقامت تدندن بالألحان، نظرت جوليا لها نظرت لم ترها وركضت نحو القصر تبكي دمًا، كانت تركض كما تركض الأميرة نحو بيتها حينما تفقد من أحبته ولم يحبها، أو بالأحرى أحب ما لديها من مظاهر مادية، كانت حاملة طرف فستانها الزاهي، ظنت أن مريم لو رأتها فإنها حتما سوف تسخر منها، لذا وفرت كل نحيبها حتى اختلت بنفسها، دخلت القصر وأطفأت جميع الأنوار والموسيقى، أغلقت النوافذ وأوصدت الأبواب، ومع تلك الأشياء التي تغلق فإنها قد أغلقت قلبها ووضعت حوله الأقفال، هكذا أقنعت نفسها، توجهت نحو غرفتها وبدلت فستانها المشرق لآخر داكن، ثم أحضرت شيئًا ما أخفته خلف ظهرها، وتوجهت نحو مريم في الفناء، كانت مريم تقف على حافة الجبل وهي تتأمل الغيوم والماء من تحتها، وقفت جوليا خلفها بصمت وهي تضع يدها خلف ظهرها مخفية ما بها:
- مريم.
التفتت إليها بوجه خال من تعابير الفرح أو الحزن.
- هل أحضرت الكتاب؟
- نعم، لقد بدلت ملابسي.
- لم أسأل عن ملابسك، شيء لا يخصني.
- أتقصدين لا يهمك؟
- نعم.

- لقد ابتسمت لي للتو لأول مرة منذ قدومك.
- ابتسامة ساخرة، أين الكتاب؟
- إنه في حقيبتي، هل أطلب طلبًا قبل أن تأخذيه، يمكنك أن تعتبريه ثمن الكتاب؟
- ها؟
- أريد أن أروي لك قصة.
- حسن ولكن بسرعة، ليس لدي من الوقت الكثير.
- بدأت جوليا تسرد القصة ومريم واقفة عند حافة الجبل، كانت الأولى واقفة أمامها تمامًا.
"كان ياما كان، بمكان قريب وزمان بعيد في بلاد كلودا، كانت هناك ساحرة تتعامل مع العفاريت والجن، إنها الملكة، أنت تعرفينها، وكان هناك رجل ثري جدًا أرادته زوجًا لها ولكنه رفض. غضبت كثيراً، وقد ازدادت غضبًا عندما تزوج الرجل بامرأة أجمل منها، كانت ابنة عمه، ولدت له المرأة بنت جمالها ساحر كبياض الثلج، كانت العائلة الصغيرة تحيا لياليًا دافئة فرحة بقدوم المولود. العجوز لم يكن بالها هادئًا، فقد كانت تشتعل غيظًا، في إحدى الليالي سخرت العجوز كبير العفاريت عندها لنقل القصر الذي تعيش به العائلة لجبل مهجور لا يعلمه مخلوق على وجه الأرض.
وضع القصر فوق الجبل، ولكنها لم تكتف بهذا، فقد ألقت لعنة على المولودة وأمها بحيث لا تستطيعان أن تغادرا القصر وما حوله من مساحة أبدًا، أما الأب فقد تركته هناك يصارع السقم حتى مات، وحدث ما سردته لك قبل هذا، قتلت جميع من يسمون باسمه، وفرقت بين المدن والقرى بتلك الجبال الموجودة بكل مكان، وبالنسبة للأم فإنها ظلت مع ابنتها حتى كبرت وبلغت العاشرة، بعد ذلك أصابها السقم ولحقت بزوجها، بقيت الفتاة وحيدة في القصر لا تكلم إنسًا حتى بلغت الخامسة عشرة، أتعلمين من تلك الفتاة يا مريم؟
- أنت، ولكن والدك قد أخطأ حقًا، لقد قتلت الملكة آلاف الأبرياء بينما كان يمكن أن يتفادى حدوث ذلك بالزواج منها، ولكن تبقى حكاية مؤسفة حقًا.

- لا يا مريم، أنت لست آسفة ولن تكوني كذلك أبدًا، عندما أنقذتي حياتي من الثعبان ظننت أنك صديقتي، من الجيد أن تعلمي أنه لا يوجد أي حيوان في هذه المنطقة.

عندما رأيت الثعبان تخيلت أنه سيكون صديقًا لي، لا أعلم كيف وصل للفناء الخلفي ولكنني ذهبت لأعانقه كالمجنونة.

أردت كائنًا حيًا لأتعامل معه، رأيتك أنت، ولكنك لم تكوني أبدًا حية، أنت جسد بلا روح، قلب بلا نبض، أو منطق بدون عاطفة، أنت كالحجر أو أشد قسوة، لقد أحبك قلبي، وقد جرحتيه وتركتيه ينزف دون أن تلتفتي، أو حتى تأخذيني معك، فعلتي كما فعل الآخرون، أنت كاذبة كالجميع.

- ها! أنت مملة جدًا، تحبين العتاب.

- لا، أنا لا أعاتب من يقتلني ولكن أقتله فورًا.

- ماذا تعنين؟

- لقد أكرمتك وأهنتيني يا مريم، لست بشرًا أبدًا، لا يمكن أن تكوني كذلك، لا يمكن أن تكوني محاربة.

في تلك اللحظة أخرجت جوليا سيفًا من وراء ظهرها ووجهته نحو رقبتها وهي واقفة عند زاوية الجبل والبحر من تحتها، توترت مريم كثيرًا وأخذت تلقي كلامًا معسولًا، شكت جوليا في أنها كانت تعقله أصلًا.

- جوليا، ماذا تفعلين يا حبيبتي؟ أنا أحبك. لا يمكن أن أتركك وحدك في هذا المكان المقطوع عن العالم، كنت سآخذك معي إلى بيتي، نعم كنت سآخذك ونعيش في سعادة إلى الأبد يا حبيبتي، أنا أحبك كثيرًا.

ابتسمت جوليا.

- أنت تبتسمين! هل أنتِ موافقة؟

- ابتسامة ساخرة، سنلعب لعبة، موافقة؟

- أنا فرحة جدًا لأني سألعب معك، أنت فتاة رائعة.

- أعلم، كيف تريدين الموت؟ طعنًا أم شنقًا أم غرقًا، عليك اختيار اثنين، لا تطمعي وتختاري الثلاث، أعلم أنك فتاة خبيثة وتحبين أن تأخذي الكثير ولا

تعطي ولو حتى القليل.
نظرت إليها جوليا بقسوة وحزم غير متوقعين، كانت عاطفتها قد توقفت عن العمل تمامًا، وصرخت:
- هيا، اختاري وإلا فعلت الثلاث في آن واحد.
أخذت مريم تبكي بحرارة وتتوسل إليها أن تتركها، ولكن جوليا تجاهلتها وأضافت:
- استلقي على الأرض وسأفكر بالتالي.
استلقت مريم على الأرض ونظرت إلى الأخرى آملة في عفوها، لم تكن تستطيع الحراك فقد كانت محاصرة ومضطربة نفسيًا.
- والآن ماذا ستصنعين؟
وضعت السيف بجانبها ممسكة به فظنت مريم أنها ستعفو عنها، ولكنها حملته مجددًا وطعنتها طعنتين بسرعة عمياء، لم تكن قد ماتت، كان تتنفس كثيرًا، استغلت جوليا اللحظة قبل موتها ودحرجتها حتى زاوية الجبل، كانت تتوسل إليها أن تتركها، ولكن جوليا تجاهلتها وتركتها تسبح مع الهواء حتى سقطت في البحر، حاولت أن تنجد نفسها بالسباحة نحو اليابسة ولكن جرحها وأثر ارتطامها القاسي بسطح النهر قد شل حركتها وأغرقها في ثوانٍ معدودة، أخذت جوليا تضحك بهستيرية، فللتوّ شعرت بنشوة الانتصار.
صبّت الشاي وأخذت ترتشفه، ولكن سرعان ما أن بدأت بالبكاء، للتوّ قد ارتكبت جريمة في حق نفسها وحق مريم.
لقد قتلت من أحبّت.

(٤)

كان العرق يتصبب من جبينها، فقد كان الجو حارًا جدًا، الشمس حارقة والجميع في بيوتهم.

من هذا الذي يترك بيته في مثل هذا الجو؟! كانت هناك بيوت قصيرة والكثير من الأراضي الزراعية، الناس في هذه المدينة يزرعون الخس والجزر فقط.

مهلًا! كيف وصلت هنا؟

لقد قتلت، لقد طعنت. نعم، طعنت مرتين وقذفت بالماء.

نظرت مريم إلى تلك المنطقة التي كان بها النزيف ولكنها لم تجد أثرًا لأي دم، أو حتى للمياه على ملابسها، رأت فقط علامة سوداء مكان الجرح، الأمر كان أشبه بذلك الوقت عندما تجرح في أصبعها، وعندما تمر أيام فإن الجرح يبرأ وتبقى مكانه علامة سوداء، سمعت مريم صوت عجوز من خلفها، تعرفت على الصوت، إنها تلك العجوز التي رأتها أول مرة فور وصولها إلى الغابة.

- مرحبًا يا فتاة.

نظرت مريم إليها بحقد وقالت:

- أولًا أدعى مريم، ثانيًا أنت سبب كل المشاكل التي واجهتني، لو أنك أرشدتيني للطريق إلى قريتي لم أكن لأتوه.

- أظن أنك أفضل من كل الناس، وذلك لأنك تتظاهرين بالكمال دائمًا، ولذلك فإن باستطاعتك الاهتداء إلى الطريق بدون مساعدة.

- كيف تحكمين علي بالتكبر دون أن تعرفي من أكون حتى؟

- الدرس الثاني: "من تواضع لله رفعه".

- اسمعي يا شعثاء الشعر، إن لم ترشديني إلى الطريق فإنني سوف أتخلص منك وأمحوك من على سطح هذا الكون.

- بمناسبة الخلاص؛ الكفن ثلاث، الولادة ثلاث، وما بعد النوم مرة، وتذكري يا

حلوة، المخلوقات هنا صنفان: طيبون ويبغضون الظلم أو ظالمون ويفتكون بالطيب.
- أتعلمين أني سئمت منك؟
أخذت مريم تجول بنظرها بحثًا عن حجر على الأرض، فوجدت واحدًا، ولكن ما أن رفعت بصرها عليها مجددًا لترميها بالحجر حتى كانت قد توارت عن نظرها، أخذت مريم زفيرًا عاليًا وجلست القرفصاء تستريح على الأرض، كان بجانبها ذلك السور الذي مرت عبره أول مرة.
استبشرت خيرًا وأخذت تصطدم به لعلها تمر منه مجددًا، ولكن محاولاتها باءت بالفشل، شعرت بأنها منهكة فجلست تستريح مجددًا.
وفجأه سمعت صوتًا حادًا قادمًا من جانبها:
- من العابر؟
نظرت إليه لتحادثه ولكنها تفاجأت وانقطع لسانها عن الكلام أو حتى السلام، لم يكن رجلًا، بل كان أرنبًا قصير القامة يقف على رجلين مثل البشر تمامًا، نظرت حولها تبحث عن المتحدث متجاهلة الأرنب.
- من يتكلم؟ من هناك؟
- ألا ترين أن هناك أرنبًا يكلمك؟ يبدو أن نظرك ضعيف.
وجهت الفتاة بصرها نحو الأرنب وقد كان يستشيط غضبًا.
- لا بد أني أتوهم.
أخرج الأرنب صفارة وأخذ يلحن بها ألحانًا جميلة وغريبة ومثيرة، استمتعت مريم بالنغمة وأرادت أن تأخذ له فيديو وتنشره على وسائل الإعلام، ولكن فجأة رأت فوجًا من الأرانب الذين لا يحصون من كثرة عددهم، كانوا قد أحضروا عصا طويلة وحبلًا سميكًا، أمسكوا بيديها ورجليها وربطوها بالحبل، ثم ربطوا الحبل في العصا بحركات مدروسة، حاولت الفتاة الفرار والدفاع عن نفسها ولكن الأرانب نجحوا في السيطرة عليها، ربطوها بالعصا وحملها الكثير من الأرانب، كان الأرنب يقف فوق أرنبين ويمسك بالعصا كي ترتفع من سطح الأرض.
- اتركوني، أنا مسالمة.

صاح أحدهم:
- ليس قبل أن تقابلي الحكيم، هو يتعامل مع الدخلاء.
- لست دخيلة يا سليط اللسان.
تدخل آخر وكان يمسك طرف العصا:
- لا أرى أحدًا لسانه سليط غيرك يا طويلة.
- أنت القصير، أرانب غبية.
وصلت الأرانب لكوخ قصير بابه ضئيل جدًا لا يتسع إلا لرأسها، دخل أحدهم ومكث قليلًا، ثم خرج وخرج خلفه أرنب ذو لحية بيضاء يتكئ على عصا.
- أنزلوها.
ترك الجميع العصا تسقط أرضًا فآلمها ظهرها، ثم فكّوا الحبل.
- تبًا لكم!
جلس الحكيم على مقعد دائري مصنوع من الخشب قاتم اللون، تنحنح وبدأ بالتكلم فانعدمت أصوات الأرانب الأخرى تمامًا.
- من أنت؟ ومن أين جئتِ؟
- أنا مريم، لقد ضللت الطريق، أنا مسالمة.
- وأين تريدين التوجه؟
صمتت قليلًا وأخذت تفكر في المكان الذي سقطت على أرضه أول مرة.
- لست متأكدة، ولكن كان هناك غابة مليئة بالأشجار الطويلة التي تحجب السماء، وكانت هناك الأعشاب النضرة، و، نعم تذكرت، في تلك المنطقة رأيت شجيرات من التوت الأبيض به نقطة سوداء كالعين تمامًا.
- هل تناولت شيئًا من هذا التوت؟
- لا.
- هذا التوت يسمى "أكتايا باشيبودا"، إنه من أكثر الطعام تسممًا على أرض بلاد كلودا، مجرد أن تأكلي منه قطعة فإنك تموتين على الفور.
نظرت إليه بذعر وقالت:
- كنت سأكون ميتة بلا شك.

قال معلنًا:
- لقد أتيت من غابة تدعى "الماندا"، لا يسكنها حيوانات أو بشر حتى، فهي تعد من أكثر الغابات ضراوة، وهذا لأن كل النباتات فيها سامة، إن هذه الغابة بعيدة جدًا عن هنا.
صمت لوهلة مفكرًا ثم قال:
- كيف وصلت إلى هنا يا فتاة؟ لا أحد يستطيع العبور عبر هذه المناطق غير شخص واحد.
- المحاربة، نعم أنا محاربة.
هاج جميع الأرانب مرة واحدة حتى قال الحكيم:
- سكوت يا أهل القرية.
ران الصمت عليهم فقال:
وكيف وصلت هنا يا؟
قالت مريم بغرور:
- مريم، أنا المحاربة مريم، أفضل الاحتفاظ بسر تنقلي عبر المناطق.
نظرت مريم لمكان السور ولكنه كان قد اختفى كما حدث أول مرة، همست مريم: "تبًا لهذا السور!!".
سأل الحكيم بوقار:
- ولماذا تريدين الذهاب لغابة سامة؟
- هذا لأن مدينتي بالقرب منها.
- حسنًا، أنت في نظر أهل قرية "مانيلا"، وهي قريتنا تعتبرين دخيلة حتى تثبتي أنك المحاربة المقصودة.
- لست كذلك يا قصير القامة، أنا محاربة.
- وتعتبرين سليطة اللسان كذلك.
همّت مريم أن تصيح بوجه الأرنب ولكنه تداركها قائلًا بهدوء:
- أي تجاوز منك لأهل القرية ولي خصوصًا يؤثر على رجوعك لبلدك، فأنا لدي كتاب يرشد المحاربين.

قالت مريم بلباقة ليست من عادتها:
- هذا من حسن كرمك يا حكيم القرية.
- هناك قوانين تخص أي دخيل في قرية "مانيلا"، حتى لو ادّعى السلام، ولذا فإنها سوف تطبق عليك.
- هات ما عندك.
دخل الحكيم كوخه وخرج حاملًا كتابًا، فتح صفحة معينة فورًا وكأنه يعلم ما يريد دون الاطلاع على الفهرس، وقرأ بصوتٍ عالٍ:
- الفصل رقم ١٨ البند الرابع؛ العنوان "دخيل تائه"، إذا تصادف وجود دخيل تائه في القرية وطلب الإرشاد إلى طريق مدينته، فإنه يجب عليه أن يقوم بعمل عظيم يخدم به أهل القرية ليساعده الحكيم بمعرفة الطريق.
قرأ تلك السطور ثم أغلق الكتاب.
قالت مريم بتضجر:
- أف، يبدو أن الأمر سيطول.
- بما أن الجو حار جدًا، ويجب أن تتم سقاية الزرع أكثر من مرة يوميًا، فإن الأمر يشق على أهل القرية، إضافة إلى أن المساحات هائلة وأياديهم قصيرة وتفكيرهم بسيط.
- وأنا كذلك، العين بصيرة واليد قصيرة.
قال الحكيم بأناة:
- لا تهربي من المسؤولية يا فتاة، أنت من جنس البشر ولديك عقل فائق الذكاء، أظن، بل متأكد أنه يسهل عليك إيجاد حل سريع.
قبل أن تعرض عنه بوجهها كان الحكيم قد قام من مجلسه ودخل الكوخ وأغلق الباب، بعد أن فعل ذلك، هاجت كل الأرانب ثم عادت لعملها، كانوا يحترمونه ويقدسونه بشدة، توجه أحد الأرانب صوبها وقال:
- مرحبًا مريم، أنا ماندي، سمعت عن البشر كثيرًا، ولكن لم أظن يومًا أني سألقى أحدهم، هل توقعين لي هنا؟
تظاهرت بالانزعاج وقالت:

- إحم، ليس الآن فأنا مشغولة، عندما أنتهي من العمل سأوقع لك.
- هل أصحبك؟
تظاهرت بالتفكير فقال فورًا:
- لن أسبب لك أي إزعاج، أعدك، سأنظر إليك وأنت تعملين فقط.
- حسنًا، تعال معي، هذا لأنك كائن ظريف.
- شكرًا لك.
- لنجلس عند الشجرة هناك.
جلست تستريح عند الشجرة وماندي يراقبها، سألته:
-هل تزرعون شيئًا غير الجزر والخس؟
- لا، هذا طعامنا المفضل.
- أنا جائعة.
قام ماندي من فوره وأحضر لها حزمة من الخس وأخرى من الجزر، تبقى القليل فأعطته لماندي وأمرته أن يضعه في حقيبتها، فتح ماندي الحقيبة وحين وضعهم رأى فيها الطائرة.
- ما هذا الكائن يا مريم؟؟
أجابت ضاحكة: هذا ليس كائن، إنه جهاز، إنها طائرة.
- وكيف تعمل؟
- إنها لا تعمل، لقد تحطمت.
- مؤسف، هل بإمكانك إصلاحها؟
- نعم، مهلًا، لقد خطرت ببالي فكرة للتو، أحضر لي خشبة مسطحة وبعض الحبال المتينة، سأصلح الطائرة.
جلست مريم تحت الشجرة تصلح الطائرة أو كما أسمتها الـ FN. ٦٠٠٠
أخذ منها إصلاحها أربع ساعات متواصلة، كان أهل القرية يمرون عليها وينظرون إليها بين الحين والآخر، كلما مر أحدهم صاح ماندي:
- انصرفوا ولا تزعجوا مريم.
أو يطلب من أحدهم أن يحضر الماء والطعام، أكملت مريم إصلاح الطائرة وكان

الليل قد أسدل ستائره وترك نجومه تزين السماء كما تشاء، استندت مريم إلى الشجرة التي خلفها وقالت لماندي:
- ألن تعود لبيتك؟
- لا، سأنام هنا الليلة، لست أصادف بشرًا كل يوم.
-أنت أرنب مفيد جدًا.
أضافت مريم بوجوم ظاهر:
- أشعر بضعف شديد.
- لماذا؟ هل أنت مريضة؟
- لا ليس الأمر كذلك يا ماندي.
- وكيف هو إذا؟
- لم أعد بتلك القوة التي كنت عليها عندما كنت في موطني، لقد كنت حازمة وشديدة ولي هيبة ووقار، أما منذ أن جئت هنا وأنا أشعر بالانهزام أمام كل شيء.
تنهدت مريم طويلًا ثم التفتت إليه فجأة وقالت:
- ما الذي يحدث الآن؟ أتكلم مع أرنب بكل عفوية، أنا لست على طبيعتي، نعم، لست كذلك.
سكت الاثنان للحظات فقال الأرنب بلهجة الحالم:
- أتعلمين ما أقصى أمنياتي بهذا الكون؟ أريد أن أكون صديقًا لأحد البشر، هل أكون صديقك؟
- لا، لست صديقة أحد.
قال الأرنب بتجهم:
- أحيانًا تكونين لطيفة، وأحيانًا تكونين عكس ذلك، لديك شخصية غريبة.
قالت مريم بازدراء:
- أمسك لسانك يا قصير.
نامت مريم تلك الليلة حتى ظهرت خيوط الشمس الأولى، فاستيقظت لتجرب الطائرة، كان ماندي قد استيقظ وأحضر الفطور، بدأ بالأكل دون أن يعرض

عليها مشاركته.
- لماذا لم تعرض علي الطعام كالأمس؟
- عندما تجرحين مشاعر أحد فلا تتوقعي منه أن يكمل إعجابه بك.
نظر إليها ولم يضف شيئًا، فجلست بجواره وأخذت تأكل.
- ألا تريد أن تجرب الطائرة؟
دار في خلد ماندي أنه عندما سألته مريم إن كان يود تجربة الطائرة فإنه قد لاحظ أمرًا في شخصيتها، إنها تحب أن يقدسها ويمدحها الجميع، ولكن عندما تحصل على التجاهل ممن كان يمدحها فإنها تحاول جاهدة أن تعيده لما كان عليه.
تذكر هذا فقال متصنعًا الغضب:
- لا، لا أريد.
- حسنًا، اسمع، يمكنك أن تكون صديقي.
- لا أريد.
- هيا يا ماندي، لا تكن مزعجًا.
نظر إليها وقام من مكانه بثقل فقالت:
- رائع، هيا.
طارت الطائرة أول جولة بنجاح فأخذتها مريم وثبتت فيها خرطوم المياه، أمسكت مريم بجهاز التحكم وطارت الطائرة للمرة الثانية بنجاح، ولكن هذه المرة كان الماء يسقط من الخرطوم
فقالت مريم متفاخرة:
- وهكذا نسقي الزرع بدون تعب.
أعلن ماندي في القرية أن المشكلة قد حلت وسيسهل عليهم سقاية الزرع من الآن فصاعدًا، حددوا يوم إجراء التجربة والإعلان عن الاختراع وهو الغد.
غدًا ستطير الطائرة ويسقون الزرع ويفرح المزارعون.

----

(٥)

جاء اليوم الموعود وحُشِر حشد عظيم من الأرانب بقرية "مانيلا"؛ لرؤية الطائرة وهي تسقي النباتات، أمسكت مريم بجهاز التحكم وثبتت الخرطوم بالطائرة، لم يدم انتظار أهل القرية طويلًا حتى طارت الطائرة وبدأت ترش النباتات بالماء، هذه كانت أول مرة تتلقى مريم فيها نجاحًا عظيمًا مشهودًا في أحد اختراعاتها، فلقد تم سقي جميع مزارع القرية وأهلها ينظرون، تعالت أصوات التصفيق والصفير الصادرة من الأرانب، وقف الحكيم على تلٍ عالٍ وأخذ يشير بيده فعم السكوت التام.

همست مريم:

- هذا العجور لديه قدرة جبارة في إدارة الأمور.

وبدأ الحكيم بالحديث:

- يا أهل القرية، اليوم هو يوم عظيم يشهد تاريخ هذه الأرض التي نعيش عليها ومجدها، اليوم أعترف لكم أني قد بدلت جزءًا من تفكيري واكتسبت آخر، عندما كنت أتجول في أنحاء العالم رأيت الكثير من البشر الوحشيين والذين يستمتعون بأذية الحيوانات، ولكن اليوم بدلت هذه الفكرة عندما حلت علينا مريم ضيفة، هناك أرانب سيئون وآخرون صالحون، وكذلك البشر، لقد يسّرت أمرًا عانى منه أجدادنا لآلاف السنين، أما الجزء الآخر الذي اكتسبته فإني قد اكتسبت احترام هذا المخلوق، بكل الاحترام والود، أتمنى أن تأتي الليلة عند منزلي لأسلمك كتاب إرشاد المحاربين.

وقفت مريم بتل أعلى من الذي يقف عليه، وكأنها تتحداه، وقالت بعلو وتكبر:

- هذا من حسن تدبيري بالأمور، لم أكن لأتم هذا الاختراع لولا ذكائي وحنكتي، بالطبع سوف آتي الليلة، أما الشخص الذي سيدير سقاية النباتات فهو الأرنب "ماندي"، وذلك لأنه ساعد مخترعة مثلي.

ابتسم ماندي بتواضع، بينما لم تحب هي ابتسامته ففيها شيء من الانكسار والخضوع، تجاهلت الموضوع وسلمته جهاز التحكم، تعالت أصوات الأيادي المصفقة مجددًا، بعد أن انتهت من حديثها غادر الحكيم متوجهًا لبيته، نزلت مريم من التل وقد كان الجميع ينظر إليها، فمنهم من يسألها أسئلة، ومنهم من يطلبون توقيعها، وآخرون يلقون المديح والثناء على طائرتها، كانت في قمة شعورها بالسعادة، فقد كان أجمل ما تحب أن تكون الأضواء حولها، ثم خطرت ببالها فكرة عندما رأت هذا الحشد، صعدت فوق التل مجددًا وأشارت بيدها كما فعل الحكيم فصمت كل من كان بالقرية.

وبدأت بالحديث:

- يا أهل القرية، لقد رأيتم خبرتي في إدارة الأمور وتصليح الأشياء، فما رأيكم أن أكون عليكم زعيمة وأحكم القرية؟

صاح أحدهم:

- الحكيم هو زعيمنا.

- الحكيم أصبح عجوزًا ولا يقدر أن يدير أمور القرية وحده، إذا انتخبتموني فإني سأجري الإصلاحات على بيوت القرية وأطورها بعقلي الذكي، ستكون أقوى قرية على مر العصور.

أخذ الجدال يرتفع بين الأرانب حتى هتف أرنب من بينهم:

- أنا أنتخبك.

حدقت به الأرانب ولكن سرعان ما ارتفعت الأصوات موافقة لرأيه، أما عجائز القرية ومن لديهم الحنكة والخبرة فلم يصوتوا لها، وصل الخبر إلى الحكيم سريعًا، ما فعلته كان بمثابة انقلاب عليه. أسدل الليل رداءه الأسود وجلست مريم تراقب مصابيح السماء حتى استدعاها الزعيم وبدأ حواره سائلًا:

- ما جزاء الإحسان؟

- الإحسان.

- رائع، أنت مثقفة.

- أعلم.

- وأيضًا متكبرة.
- لي الحق بسجنك بحق هذه الكلمة.
- لقد أحسنت ضيافتك أول مرة وصلتِ بها واعتبرتك دخيلًا مسالمًا، أظن أني أحسنت إليك مرة ثانية حينما أخبرتك أني سأرشدك إلى الطريق.
- وأنا أيضًا أحسنت إليك مرتين، أول مرة أني خدمت قريتك، والثانية أني لن أقتلك حينما أصبح زعيمة، نحن متساويان.
نظر الحكيم إليها بهدوء وقال:
- الحكيم أرنب جاب البلاد واكتسب الخبرة من التجارب، فما تجربتك أنت في الحياة يا فتاة؟
- لدي الكثير، لكن ليس لدي من الوقت الكثير لأتكلم معك، يجب علي النوم، الأسبوع القادم ستظهر نتيجة الانتخابات، لذا فإني أسعى لأن أفوز به، هناك ثلاثة أرانب غيري مشاركون بها، ولكني سأفوز حتمًا، ألن تشارك؟
- لا، ليس من قانون قرية "مانيلا" أن يشارك من انقلب عليه شعبه في الانتخابات .
- طفل مهذب وتحترم القانون.
- لن يمر الأمر بسلام يا عملاقة، أهل القرية يكرهون الاستبداد، ستلقين جزاء فعلتك أربعة أضعاف، صدقيني.
تجاهلته مريم وذهبت عند الشجرة لتنام، في خلال الأيام التي قبل الإعلان عن الزعيم فعلت أشياء تخدم أهل القرية، قامت بإصلاح ودهان نصف مباني القرية ووعدتهم بإكمال الباقي بعد فوزها بالانتخابات، أخبرتهم أن الخس والجزر ينتجان سلطة ليس لطعمها مثيل، جربها أهل القرية وأعجبتهم جدًا، فاعتمدوها كجزء أساسي من وجبة الفطور، مر أسبوع وظهرت نتائج الانتخابات . حصلت مريم على أعلى نسبة بين باقي المرشحين، فعينت زعيمة، وكان أغلب أهل القرية شبابًا في بداية حياتهم، متهورين ويريدون الثورة، يكسرون القوانين ويهيجون دائمًا، ولذا فإن اختيار مريم كزعيمة كان من القرارات الخاطئة تمامًا. ولكن الآن تتضح الأمور شيئًا فشيئًا، سكان قرية "مانيلا" يرون أن مريم فتاة

متغطرسة وتعمل في سبيل مصلحتها الشخصية، في أول أيام حكمها أمرت أهل القرية أن يصنعوا لها بيتًا تتمكن من دخوله، شارك كل أهل القرية في بنائه، فقد كان هائلًا، كانت ترسلهم إلى الغابة ليحضروا لها الطعام، وإضافة إلى ذلك، فإنه بعد مرور ثلاثة أسابيع، لم تكن مريم قد أنجزت ولو أمرًا واحدًا من تلك الوعود التي ظلت تلقيها.

حتى جاءت تلك الليلة التي سكنت ذكراها بنفوس أهل القرية على مر العصور، اجتمعت مجموعة كبيرة من الأرانب في بيت أحدهم، كانوا يتحدثون عن الكارثة التي يعيشون فيها، وهي استيلاء مريم على عرش الحكم.

قال أحدهم وكان فصيح اللسان:

- وعدتنا مريم بالإصلاح والتطور، ولكن ما نعيش به الآن هو مرحلة ما بعد الحضارة التي كنا نعيشها بعهد الحكيم، يجب أن تكون هناك ثورة طاغية على استبدادها.

وافق باقي الأرانب على بداية الثورة، ولكن هناك من أعلن اعتراضه، مريم متكبرة وعملاقة ومن الممكن أن تتحدى جميع العقبات من أجل الوصول إلى هدفها الشخصي، الثورة لن تجدي نفعًا، ستستخدم عقلها البشري للخلاص منا.

قال أحدهم وقد بدا على قسمات وجهه الجرأة:

- فلنقتلها.

عم الصمت في المجلس فأضاف مجددًا:

- مريم فتاة قوية وعملاقة، إن نحن عارضناها بسلبية سوف نهلك بلا شك، لنرفع السلاح جميعًا ونقتلها جماعة وليس فردًا، الحكيم يستحق هذا اللقب وليس فتاة صغيرة وساذجة، ولا تنسوا يا أهل مانيلا أن البشر يطهون الأرانب ويأكلونهم بدم بارد، لسنا ذوي قيمة عندهم.

صمت الجميع لوهلة ثم تعالت الأصوات موافقة:

- القتل، القتل.

صاح أحدهم:

- فليخبر كل أرنب الأقوياء من عائلته وأقربائه، نريد أن نصبح عددًا كبيرًا.

وافقه الجميع وانفض المجلس، كان الموضوع سر لا يصل إلى مريم، والأرانب كانوا بارعين بحفظ الأسرار.

****

في ناحية أخرى من نواحي القرية كانت مريم جالسة عند شجرتها المعتادة، كانت هادئة تمامًا حتى أصابها ألم شديد برأسها وجسدها، وهنت قواها وسكنت للحظات ثم قامت يملأ وجهها الاستكبار كما لو أنها قد أصبحت شخصًا آخر، كان المزارعون عائدين من الحقول، رأت أحدهم يمر بالقرب ويحمل مجرفة وفأسًا، فأمرته أن يحضر لها الماء من النهر، ذهب إلى النهر ومكث دهرًا ثم عاد بقربة ماء تكاد ترى الماء فيها:

- هل سأشرب هذا أيها الأحمق؟
- هذا ما نشربه نحن.
- وما بالي بكم؟
- ظننت أنك الزعيمة وتشربين مما نشرب.
- اسمع يا قصير، سأسكب هذا الماء على الأرض لأنه لا ينفعني.

ناولته كوبًا كبيرًا كان بجوارها وقالت:

- اذهب إلى النهر وضع الماء في الكوب حتى يمتلئ.
- ولكن هذا ثقيل.
- تصرف وإلا سأشرب من دمك.

حمل الأرنب الكوب بملل وتمتم ببعض الكلمات التي سمعتها:

- ليس قبل أن نفعل.

تنفست الصعداء واستندت إلى الشجرة، ثارت على تلك الكلمات.

- ماذا يقول هذا الأحمق؟ أقسم أني سأطهوه وأشرب من دمه.

وبعد مرور زمن قصير رأت حشدًا عظيمًا من الأرانب قادمين نحوها، وكل منهم يحمل عصا. ظنت أنهم يريدون توقيعًا أو ما شابه على عصيان عملهم حتى يتذكروها حين يعملون.

*****

في منطقة أبعد قليلًا كان يقف ماندي، على صعيده الشخصي لم يكن موافقًا على ما تفعله مريم، ولكن لم يكن أبدًا ليقتلها، ولم يكن أيضًا لينبهها بخطة قومه، فتلك خيانة عظيمة لشعبه، لم يكن يملك غير السلبية، رأى ماندي أرانب تتعدى الخمسين متجهين نحوها وهم يحملون العصي، بدأوا بضربها كرجل واحد من جنس البشر، نزفت مريم الدم، ولكنهم لم يتركوها، كانت تستغيث، أظهرت ضعفًا لأول مرة يشهده الجميع، كان هناك ذلك النهر في القرية، وصلوا هناك وتركوها في منطقة عميقة، أخذت تسبح بكامل قواها، ولكن لا مناص من الغرق فقد كانت جريحة، اختفت مريم من سطح النهر، عم الصمت بين الأرانب بعد أن سحبها الماء للقاع، وفجأة صاح أحدهم كاسرًا الصمت:

- الحرية، الحرية.

وبدأ الجميع بتكرار الجملة حتى صار شعارًا في القرية.

كتبت أقلام أهل القرية تلك السطور وعلقت على كل باب وحائط ومبنى.

"من الممكن أن تكون الأرانب في قرية مانيلا ذات بنية ضعيفة وعقل بسيط، ولكن بلا شك فإنهم يكرهون القهر والظلم ولا يرضونه أبدًا وكذلك جميع شعب كلودا".

كانت مريم لتكون بينهم الآن لو كانت متواضعة وتعمل لخدمة شعبها، ولو أنها كانت متواضعة فلم تكن لترضى لنفسها أن تكون في منصب الحكيم، لقد خسرت شيئين: الأول هو احترامها بين أهل القرية، والثاني هو رجوعها للموطن، ستظل قصة مريم خالدة في أذهان شعب "مانيلا"، قصة يعتبر منها الصغير والكبير وينشرها الأرانب في الأسواق والمزارع والبيوت.

ومرت الأيام تلو الأيام ولم تظهر جثة مريم على سطح النهر، فكتبت الأرانب قصة جديدة فيها أن النهر أظهر انتقامه بابتلاعها في جوفه إلى الأبد.

(٦)

فتحت الفتاة عينيها شيئًا فشيئًا، رأت السماء صافية من الغيوم، كان الجو ربيعًا والهواء طلقًا، اعتدلت في جلستها، تحسست جسدها فلم تجد أثرًا لجروحها السابقة، نظرت حولها، هناك الكثير من الأشجار ذات الأوراق الخضراء والحمراء والبرتقالية، أما الأرض تحتها فكانت مكتنزة بالعشب الريان، بالقرب منها رأت منظرًا خلابًا.

كان الوقت عصرًا، والنهر أمامها يتلألأ سطحه تحت الشمس المقاربة على المغيب، اقتربت من النهر بابتسامة صافية لم تعهدها، ولكن سرعان ما تذكرت أنه سبب هلاكها ثلاث مرات فابتعدت عنه، تذكرت تلك العجوز التي كانت تقول لها شيئًا عن الموت بهذا العدد، كانت ذاكرتها قوية فتذكرت قول العجوز "الكفن ثلاث والولادة ثلاث وما بعد النوم مرة".

يبدو أنها فهمت بعض حديث تلك العجوز، فأخذت تفكر بصوتٍ عالٍ:

"الكفن ثلاث والولادة ثلاث وما بعد النوم مرة، الكفن هو الموت، والولادة تقريبًا هي الحياة ثلاث وثلاث، لقد مت ثلاث مرات وعادت حياتي ثلاث أخرى، ولكن ما تكون بعد النوم مرة؟ أتمنى لو أن العجوز موجودة فأسألها ولا أسخر منها، كم كنت غبية حينما كنت أسخر من الناس وأتكبر عليهم! مؤكد أن هذا هو سبب كرههم لي، لقد تلاعبت بالمشاعر الجميلة التي كانت تكنها لي جوليا، لقد تكبرت على أهل قرية " مانيلا "، لقد أهنت حاكمهم وأصبحت عبرة تعتبر، "الناس يحبون من يعاملهم برفق"، هكذا كانت تقول لي أمي دائمًا".

تذكرت مريم حديث العجوز:

- هذه بلاد كلودا يا فتاة، المخلوقات هنا صنفان؛ طيبون ويبغضون الظلم أو ظالمون ويفتكون بالطيب.

ولكنها حتى الآن لم تر إلا الصنف الأول، أخذ تفكيرها يجوب بها بعيدًا منفصلة

عن أرض الواقع. كانت تلوم نفسها، ولكن سرعان ما أخذت تفكر بالحماقة التي رسمتها بذهنها فعادت تفكر بصوت أعلى من السابق.
"لماذا ألوم نفسي أصلًا! أنا فتاة ذكية ويجب على الناس أن يحترموني ولا ينتظروا مني المبادلة، ماذا لو أنني ملكة وأعيش بقصر مهيب كقصر جوليا؟ سوف أحدث ثورة في هذا العالم حتمًا".
أخذت تمجد نفسها في مخيلتها حتى أدركت أنها جائعة جدًا، توجهت نحو النهر وأخذت تنظر إليه مليًا.
كانت هناك سمكة تسبح أسفل سطح النهر ببضعة سنتيمترات، رغم أن الظلام كان قد وقب، إلا أنها كانت تراها بوضوح، كان معها كيس بلاستيكي في الحقيبة فأخذته ومررته سريعًا في محيط السمكة، لم تستطع أن تلوذ الأخرى بالفرار، فقد كانت مريم أسرع حراكًا، أغلقت مريم الكيس جيدًا وجلست بجوار النهر، كانت سمكة شديدة الجمال، ليست كباقي السمك، فهي تملك بريقًا ذهبيًا على جسدها الملون، كانت ترتدي تاجًا، تخيلت مريم لو أن تلك السمكة هي ملكة في بلدتها، سخرت من تفكيرها بجدية.
- هذا أمر مضحك حقًا يا مريم! لقد أصبت بالجنون حتمًا.
وضعت الكيس على العشب، فحاولت السمكة أن تدحرجه نحو النهر، لذا أخذت مريم صخرة وثبتت طرف الكيس بها، فصار الفرار مستحيلًا، ثم بحثت عن خشب في الجوار، فوجدت خمسة فروع من الشجر، رصّت الفروع فوق أحد الصخور مسطحة الوجه، كان لديها علبة كبريت دائمًا ما كانت تضعها في حقيبتها، أخرجت عودًا وأشعلت الفروع، كان الليل قد احتل الكون بظلامه الهادئ وجعل القمر ملكًا على عرش مملكته فأنارها. أما الجو فقد صار بردًا كالصقيع، التفتت مريم بجسدها نحو النار، وأخذت تفرك يديها لتذهب البرد، راودها شعور بالحنين لعائلتها ومصر التي عاشت تحت سمائها وفوق أراضيها، شعور قاتل أشبه بالوحدة! أخذت تبكي بهدوء وسكينة.
بدأت تذكر الله كما تفعل أمها وقت الشدائد، فعلت شيئًا كانت غافلة عنه لسنوات عديدة.

سبحانك سبحانك يا خالق هذا الكون، يا خالق السماء ورافعها بلا عمدٍ، وخالق الأرض وما عليها بلا تعبٍ. أمة فقيرة وأنت الغني، محتاجة وأنت المعطاء، رب ارحم ضعفي وقلة حيلتي ولا تتركني على هذه الأرض التي لا أعلمها يا رب.

مسحت مريم وجهها بكلتا يديها وقد شعرت براحة سكنت فؤادها لأول مرة، كانت النار قد اشتعلت وزاد لهيبها.

أمسكت الكيس الذي فيه السمكة، كانت حية، حيث وضعت معها الماء، أرادت فعل شيء ممتع وشيطاني يميتها موتًا بطيئًا، ثقبت ثقبًا في الكيس لا يكفي لعبور السمكة، أخذ الماء يتسلل من الكيس والسمكة تقف في زاويته وتراقبه وهو يخرج، الماء ينقص وهي تحاول أن تكون في أكثر بقعة تزدخر بالمياه، فجأة سمعت صوتًا أنثويًا ناعمًا يكاد يسمع:

- أرجوك اتركيني أذهب.

التفتت حولها باحثة عن مصدر الصوت:

- من المتحدث؟

- أنا السمكة التي حبستيها، أرجوك أخرجيني.

- السمكة! غير معقول!

- بل معقول، أنا سمكة.

- أعرف أنك سمكة، غير المعقول أنك تتحدثين.

- أرجوك اتركيني أذهب.

نظرت مريم للكيس المثقوب وسدّت الكيس بأصبعها، جلست عند شجرة وتسندتها، وسألت بتعجب:

- ولماذا أتركك؟ أنا جائعة جدًا، وأنت فريستي.

أخذت السمكة تبكي بشدة:

- أرجوك يا عملاقة أن تتركيني، أنا ملكة على بحيرة بأكملها وأم خلّفت ورائي عشرة سمكات ما زلن يتلعثمن بحديثهن.

- ملكة! أتقصدين هذه البحيرة؟

- نعم.

- لا أصدقك.
- ألا ترين لوني العجيب والتاج على رأسي.
- ليس دليلًا، أستطيع أن أرتدي تاجًا وأدهن نفسي بالألوان، هذا بسيط جدًا.
- اتركيني أذهب وسأحقق لك أمنية.
- تستهزئين بي؟
- لا لست كذلك، تمني شيئًا.
- أرجعيني إلى موطني.
- لا أستطيع للأسف فهذا فوق قدراتي، ولكن أستطيع أن أقودك لمن يمكنه إرشادك.
قالت مريم بتلهف:
- حقًا!!
- نعم، هناك سمكة مسنة جدًا لديها خبرة تتخطى خبرة عشر بحيرات كاملة، مؤكد أنها تستطيع أن تساعدك.
- وكيف أراها؟
- إنها في الأسفل، تسكن في جنوب هذه البحيرة.
- أستطيع أن أحولك إلى سمكة.
- سمكة؟!
- نعم، سمكة.
فكرت مريم مليًا ثم قالت:
إن كان هذا صحيحًا فافعلي، أريدك أن تحوليني إلى سمكة لأسبوعين، سآخذ جولة سياحية في مملكتك.
- حسنًا ولكن ليس لسمكة صغيرة فحجمك كبير، سأحولك لسمكة كبيرة جدًا، ولكن على شرط إذا خالفتيه ستكونين سجينة في لحظات.
- هاتي ما عندك.
- لا تأكلي ولو سمكة واحدة من البحيرة، إن الأسماك هنا تأكل الحبوب والأعشاب فقط، وإن حدث وفعلتِ فإن العقاب لن يكون هيّنًا.

- اتفقنا.
وقفت مريم بالقرب من البحيرة ممسكة بالكيس وقالت:
- هيا حوليني إلى سمكة وسوف أتركك.
تمتمت السمكة ببعض الكلمات التي لم تفهمها مريم، ولكنها كانت تبدو كإلقاء سحر أو ما شابه، فجأة شعرت بالاختناق وانقطع نفسها، كانت قد تحولت لسمكة وسقطت أرضًا بعيدًا عن النهر، أما السمكة في الكيس، فقد تدحرجت نحو البحيرة وانفتح الكيس فخرجت، نظرت إلى مريم التي تلهث بصعوبة، لم تتردد كثيرًا بل وثبت نحوها ودفعتها دفعة أسقطتها في الماء، استجمعت السمكة جلّ قوتها المتبقية وقفزت في النهر، وفي عدة لحظات كانت مريم تسبح في طيات بحيرة شاسعة، ابتعدت عنها السمكة بسرعة، نظرت إليها قائلة:
- لقد وعدتك، لن أؤذي سمكة.
صمتت قليلًا ثم قالت بتوتر:
- أنا، حقًا أشكرك على إنقاذك لي، لا أدري كيف أرد لك هذا الجميل.
ابتسمت السمكة بتواضع:
- إنه ليس جميلًا يا فتاة، إنه واجب على كل روح أن تساعد كل محتاج.
ابتسمت مريم بود لأول مرة، جاء في خاطرها حينما أنقذت جوليا من الثعبان، لقد شكرتها جوليا بحرارة أكثر من ثلاث مرات، وفي المقابل لم تبدِ لها مريم إلا الردود الوقحة، سبحت السمكتان نحو المنطقة التي تعيش بها الملكة، سألتها مريم في الطريق:
- بالمناسبة، هل للأسماك أسماء؟
- طبعًا، أنا اسمي سام، آسفة لقد نسيت إخبارك.
- لا عليك، وأنا مريم.
- تشرفت بمعرفتك يا مر.. مريم.
- نعم صحيح مريم.
- اعذريني فالاسم غريب عني، وصعب النطق أيضًا.
- ولكنني لا أظن أنك تشرفتي فعلًا برؤيتي، فلولا أنك سقطت بيدي ما كنت

أردتِ معرفتي.
- أعتقد ذلك، ولكنك تبدين لطيفة يا مريم، أتمنى أن أصاحبك حتى يوم رحيلك
.
اتسع ثغر مريم بالابتسامة:
- وأنا يشرفني ذلك.
- ها قد وصلنا، إنها مدينتي، مدينة "ستار بوكس".
- ستار ماذا؟
تعجبت سام:
- ما المضحك يا عملاقة؟
- اسمعي، إن ستار بوكس هو اسم مقهى في بلدي.
- حسنًا، أين المضحك لأضحك؟
فجأة توقفت سام وأشارت إلى مريم للاختباء خلف صخرة عملاقة.
- ماذا يحدث؟ لما نختبئ؟
- ليس من المفترض أن أكون هنا، فأنا معاقبة.
- لا أفهم، كيف تعاقبين وأنت ملكة؟
- اسمعي، لقد كذبت عليك بهذا الموضوع، أنا أميرة، ولكن أبي وأمي هما ملكا هذه المدينة، لذا فأنا من عائلة ملكية، وأيضًا ليس لدي أطفال، لقد اضطررت أن أقول لك ذلك كي تتركيني.
- ها، ولما أنت معاقبة؟
- لأني نكثت عهدًا.
- وما هو؟
- لقد، لقد وعدت أمي أن آكل الحلوى مرة واحدة يوميًا، ولكن منذ عدة أيام أكلت قطعتين بيوم واحد، ولهذا فأنا في السجن منذ أسبوع، تبقى يومان لانتهاء العقوبة.
- مهلًا، أنا لا أفهم، هل أنت تهذين؟ ما معنى أن تدخلي السجن لأنك تناولت قطعتين من الحلوى بيوم واحد؟ هذه أمور عائلية ومن المفترض أن تحلها أمك

بنفسها، أعني أن تعاقبك بالبقاء في غرفتك لمدة ساعة أو شيء من هذا القبيل.
- لا يا مريم، في هذه المدينة القاعدة الأولى احترام الوعود والعهود، لو وعدت بأكل الحلوى ولم تفعلي، فإنك حتمًا ستسجنين! وأيضًا لا تكذبي إن كنت لا تريدين الذهاب للسجن.
- ما هذا الهراء؟ أنت سجينة، لماذا لست في السجن؟
- لقد جلست هناك حتى أصابني الملل، أعرف المخارج والمداخل السرية الخاصة بالسجن، لذا فإني قد خرجت قليلًا ثم كنت سأعود مجددًا، ثم أمسكتني وها نحن هنا.
- وهل هذا قانوني؟
- لا طبعًا.
- إذًا فأنت خرقتي القانون.
- لست كذلك، إن القاعدة صعبة جدًا، تنفذ على الصغير والكبير.
نظرت إلى مريم بحزن وأضافت:
- لا يجب أن يراني أحد أبدًا، لن تخبري أحدًا بأني خرجت، أليس كذلك؟
- إذا علم أحد سيكون عقابك أكبر وبقاؤك في السجن أطول.
- تمامًا.
قالتها باستياء فشعرت مريم بالرأفة لحالها، كان شعورًا غريبًا لم تعهده في نفسها أبدًا، قالت لها بحزن:
- لا تقلقي، أنا لن أخبر أحدًا، ولكن بشرط أن تعودي لزنزانتك وتكملي اليومين المتبقين، إن خرجت مجددًا سوف أخبر الشرطة، سآخذ جولة بالمكان وأنتظر عودتك عند هذه الصخرة.
نظرت إلي سام برقة والدموع تترقرق من عينيها، ثم احتضنتنها:
- أنت صديقة رائعة.
كانت ستقول "أعلم" أو "أنا لست صديقة أحد" كالمعتاد، ولكنها قالت بعفوية:
- وأنت أيضًا.
دخلت سام من أنبوب مختبئ تحت الأرض، لم تلحظ مريم ذلك الأنبوب إلا

عندما رأتها تعبره. شعرت بقشعريرة خفيفة بجسدها، شعور غريب سرى بجسدها عندما احتضنت سام، تلك السمكة أيقظت بنفسها شيئًا، أو ربما تكون تلك التجارب التي مرّت بها مع الأرانب وجوليا، لقد أشعلت شعلة من الدفء بها، شيئًا من التواضع والحب، رأت مريم سام خارجة من ذلك الأنبوب مجددًا وهي تقول على عجلة:

- إذا سألك أحد من أين أنت أخبريه أنك من بحيرة أخرى وجئت عن طريق الكلب السائر.

رأت سام علامات التعجب على وجه مريم فقالت لها:

- فقط قولي هذا وسيكون كل شيء على ما يرام.

أومأت لها مريم بالموافقة فعادت سام تشق طريقها في الأنبوب المتخفي.

نظرت مريم حولها فإذا بها ترى مدينة مكتنزة بالأسماك العائمة مثلها تمامًا، كانت جائعة جدًا، رأت أحد الأسماك يبيع حبوبًا عجيبة القوام، ولكنها أحبتها وانجذبت نحوها، سألت البائع:

- بكم الحبة؟

- ما هذا السؤال الغريب؟ من أين أنت يا سمكة؟

- أنا من بحيرة أخرى.

ثم تذكرت حديث سام فتداركت حديثها قائلة:

- لقد جئت عن طريق الكلب السائر.

- رائع، يبدو أنك مغامرة.

- ليس تمامًا.

- أهلًا وسهلًا بك في مدينة "ستار بوكس".

- مرحبًا.

- نبيع الأشياء في مدينتنا مقابل معلومة أو مزحة ظريفة أو اكتشاف اكتشفتيه.

- كم هذا سهل.

- بعض الأسماك لا تملك القدرة على فعل ذلك، ولكن انتبهي، إذا كانت المعلومة جديدة فإنك تأخذين بثمنها الطعام أو الأغراض التي تحتاجينها، ولكن إذا

كانت قديمة وسمعتها قبل هذا فإنني آخذ من ذكائك رغمًا عنك، ولا نريد لزوارنا أن يصيبهم الغباء.

- حقًا! من وضع هذا الحكم؟

- إنه حكم قديم توارثته الأجيال.

ثم أضاف موضحًا:

- ولست أستطيع الكذب عليك إن كنت سمعتها قبل ذلك أم لا، وبالتالي لا تستطيعين أن تزيفي حقيقة معلوماتك، فالكاذب هنا مصيره السجن.

- حسنًا، سأخبرك معلومة، هل تعلم شيئًا عن البشر؟

- نعم، إنها كائنات وحشية.

- إنك حتمًا تبالغ، ولكن دعني أخبرك أن البشر يعيشون في محيط ليس به ماء، هل تعلم شيئًا عن الهواء الذي خارج هذه البحيرة؟

نظر إليها متعجبًا فأشارت إلى الأعلى:

- هل رأيت يومًا ما فوق سطح البحيرة؟

- لقد جربت أن أخرج رأسي خارج المياه عندما كنت صغيرًا، ولكني كدت أختنق.

- رائع، أتعلم لماذا تختنق؟

- لا.

- لأن حولك الهواء في كل مكان، والسمك يعيشون في الماء.

أضافت مريم بحماس:

- أما البشر فهم عكسنا، يعتمدون على الهواء، ولا يقدرون على المكوث في الماء لفترة طويلة.

- هذا حقًا رهيب! وأنت لا تكذبين أيضًا، ذيلك سليم من الألوان.

- ماذا تقصد؟

- يمكنك الاستفسار من الأسماك الأخرى عن حكاية تلك الذيول، لقد أخذت الكثير من وقت عملي يا سمكة.

- حسنًا حسنًا، اهدأ، ألن أنال الحبوب؟

- نعم، ست حبات وليست واحدة فقط.

- شكرًا لك يا سيد سمكة.

ذهبت مريم عند الصخرة وأخذت تتناول الحبة تلو الأخرى حتى غلبها النعاس فنامت.

(٧)

بعد مرور يومين، كانت مريم جالسة عند الصخرة، رأت سام قادمة من بعيد.
- مريم، افتقدتك كثيرًا.
- لا أخفي عليك أنني أيضًا افتقدتك.
- ماذا رأيتِ من أمور غريبة في المدينة؟
- إنهم يبيعون ويشترون الأغراض بثمن معلومة أو مزحة أو اكتشاف جديد.
- وماذا أيضًا؟
- هناك شيء غريب لم أفهمه، الزعنفة الذيلية للأسماك تضيء بألوان مختلفة، فهناك بعض الأسماك تضيء زعنفتهم بالأخضر، وهناك الأصفر، وأيضًا البرتقالي. أيضًا رأيت إحدى الأسماك تضيء زعنفتها بالأحمر وكان حولها أسماك كثيرة تبدو من الشرطة، المهم أنهم أخذوا تلك السمكة وذهبوا بها إلى المحكمة.
- مهلًا مهلًا، لقد اكتشفت الكثير، ولكن دعيني أوضح، عندما تخلف السمكة عهدًا أو ترتكب ذنبًا فإن ذيلها يتغير لونه حسب درجة الذنب، يعني أنه لو كان ذنبًا صغيرًا مثل الذنب الذي ارتكبته يتحول الذيل إلى الأصفر، ألم تلحظي تغير ذيلي منذ يومين؟
- نعم لاحظته، ولكنني ظننته شيئًا عاديًا لأنك ابنة الملكة، أعني أنه شيء يجعلك مميزة.
- حتى الملكة تخطئ وتسجن.
- يا إلهي!
- أما لو كان ذنب متوسط فإن الذيل يضيء بالبرتقالي.
- والأحمر؟
- الأحمر هو لون القتل، فالقاتل تضيء زعنفته الذيلية بالأحمر.
- هذا الحكم.

- أعلم، إنه حكم فاضح، فالمخطئ يضيء ذيله بالألوان الفاضحة.
- لكن لماذا تحول ذيلك للأخضر؟ وذيلي أيضًا إنه أخضر.
- هذا يعني أنك نقية من أي ذنب.
أضافت بابتسامة:
- تعالي نأخذ جولة، هناك الكثير لتتعرفي عليه.
عندما مر يوم بصحبة سام كانت مريم مرهقة، وكذلك سام، أرادت مريم النوم عند الصخرة، ولكن الأخرى أصرّت أن تأتي معها للقصر، عندما دخلوا إلى القصر، كان والداها بانتظار ابنتهما.
قال الأب:
- أين كنت يا سام؟
أردفت الأم:
- لقد قلقنا عليك كثيرًا.
- لا تقلقا، أنا حقًا بخير، لقد خرجت من الزنزانة، وكانت هناك صديقة لي، فقضيت معها اليوم. هذه مريم.
همست سام:
- قولي مراحب.
- مراحب يا سيدا ستار بوكس، يشرفني رؤيتكما.
قال الأب:
- أنت لبقة جدًا.
- شكرًا لك يا سيد.
همست لها سام مجددًا:
- سيد ستيف.
- شكرًا لك يا سيد ستيف.
تداركت سام الحديث سريعًا:
- حسنًا، سأصحب مريم لغرفتي، فهي ستبيت معي عدة أيام، سلام.
أضافت هامسة وهي تدفعها لمدخل آخر:

- هيا هيا مريم، أمامنا الكثير لنفعله.
قالت الملكة لزوجها:
- إن تلك السمكة حجمها كبير على أن تكون بمثل عمر سام.
رد ستيف ضاحكًا:
- يبدو أنها تأكل كثيرًا.
عندما استقرت السمكتان في الغرفة واتخذتا موضع النوم سألت مريم سام:
- هل والداك صارمان؟
- أتعنين لموقف اليوم؟
- آها.
- لا، إنهما فقط لديهما حزم في بعض الأمور العائلية، فلا أستطيع اصطحاب سمكة تعرفت عليها منذ عدة أيام للقصر، لذا فإني وددت أن ينتهي الحديث سريعًا قبل أن تسألني أمي "من أين صديقتك؟ يبدو أنها ليست من هنا"، ثم سأجيب "لا حقًا، إنها من هذه المدينة، إنها صديقتي منذ عدة سنوات"، ثم حزري ماذا؟
- ماذا؟
- سيضيء ذيلي بالألوان الفاضحة وأدخل السجن.
ضحكت مريم.
- ما المضحك؟
- تقمصك للشخصيات، أنت بارعة بهذا.
- شكرًا لك.
فجأة عبس وجه مريم، فلاحظته سام وسألتها:
- ما بك؟ لقد عبس وجهك فجأة، هل أحزنتك؟
- لا، عندما قلت لك " أنت بارعة"، هذه أول مرة أمدح شخصًا بصدق.
- أحيانًا بعض المواقف تغير الإنسان من حالة لحالة.
- معك حق، ولكن هناك شيئًا لم أفهمه حقًا.
- وما هو؟

- عندما سألني شخص من أين جئت أخبرته أنني من مدينة أخرى وجئت عن طريق الكلب السائر، هذا حقًا لم يحدث، لذا فقد كذبت.
قاطعتها سام بفهم:
- لماذا لم يضئ ذيلك إذًا؟ أليس كذلك؟
- نعم تمامًا.
- إن من يأتي من الخارج ويدخل مدينتنا لديه فرصة واحدة فقط بفعل ذنب ولا يضيء ذيله، وهذا من حسن حظك.
- يا إلهي، تبدو تلك القوانين كلعبة، صحيح، ما قصة الكلب السائر؟
- الكلب السائر هو فصيلة من الكلاب تنقل الأسماك من مدينة إلى أخرى، فالسمكة التي تريد السفر إلى بحيرة أخرى يحملها ذلك الكلب، فهو لديه حاملات بلاستيكية يضع فيها الماء ويضعها على ظهره، وإذا لاحظتِ قبل مجيئك هنا أن هناك صخورًا حمراء على اليابسة مباشرة قرب سطح النهر، تخرج السمكة رأسها وتطلق صفيرًا خاصًا لا يسمعه إلا الكلاب، فيأتي أحدهم وينقلها عبر الحامل البلاستيكي، إن ما يميز هذه الفصيلة من الكلاب هو الوفاء الشديد، هم لم يأكلوا سمكة واحدة منذ أن بدأنا بالتعامل معهم.
ظلت مريم فاغرة فاها حتى أنهت سام حديثها فصاحت:
- هذا أمر جنوني حقًا.
- نعم، إنه كذلك، هذه المنطقة تسمى أرض البحيرات، فهي منطقة كبيرة بها أكثر من مئة بحيرة تحيط بها الأشجار، وعلى اليابسة هناك الكلاب السائرة فقط.
تنهدت سام ثم قالت:
- تبًا لتلك الملكة التي سحرت بلاد كلودا من أجل حب أعمى، أتمنى أن تأتي تلك المحاربة الأسطورة سريعًا.
انتبهت مريم لجملتها فسألت مدعية عدم الفهم:
- ومن هي تلك المحاربة؟
- إنها مخلوقة من جنس لا أعلمه ستحرر قيد بلاد كلودا وتجمع شملها مرة أخرى، يقولون إن طريقة فعلها لهذا الأمر هي الحصول على قيمة أخلاقية

معينة في المنطقة التي هي فيها.
فجأة شعرت مريم بألم خفيف فقالت سريعًا:
- تصبحين على خير سام.
- هل أنت بخير؟
ابتسمت مريم:
- نعم، أنا فقط مرهقة بعض الشيء.
كانت ليلة هنيئة نامت فيها مريم جيدًا، كتلك الليلة التي نامتها على السرير الناعم في قصر جوليا، لكن هناك اختلافًا، عندما نامت في قصر جوليا، كانت تشعر بأن هذا السرير يليق بها فقط، أما عندما نامت مع سام على سرير ناعم وفي قصر أيضًا، شعرت بشيء من التواضع والزهد.

*****

اصطحبت سام مريم للسمكة المسنة التي من المفترض أنها تعرف الطريق لرجوع مريم إلى موطنها، لكن الأمر باء بالفشل، فلم تكن للسمكة أي معلومة جديدة غير أن مريم من إحدى المحاربات الذين من المفترض أن يحرروا بلاد كلودا، أخبرتها أن هناك أكثر من محاربة ستحرر هذه البلاد، وكل واحدة ستحرر منطقة، وبما أن أرض البحيرات في المنطقة الشمالية فمريم مسؤولة عن تلك المنطقة، فرحت سام للغاية عندما علمت بذلك، ولكن مريم طلبت منها أن تبقي الأمر سرًا فهي ليست متأكدة من قدراتها حتى الآن.
في الأيام التالية كانت مريم تخرج مع سام خارج القصر ويرجعون ليلًا للنوم، أخبرتها سام أن هناك قنديل بحر يهجم على هذه المدينة مرة كل سنة، ومن المحتمل أن يأتي في الأيام التالية، لذا فإن سكان المدينة مضطربون جدًا، عقدت الأسرة الملكية ومفكري المدينة اجتماع في القصر لمناقشة القضية، وكانت سام مشاركة فيه لاستشفاف الخبرة القيادية، أخبرتها مريم أنها ستهيم في المدينة وتعود بعد سويعات عندما ينتهي الاجتماع.

*****

ستيفاني سمكة في متوسط عمرها ولها رأي فيما رأته هذا اليوم في مدينتها، وقد

حكت ما رأته هذا الصباح:

"كنت أتجول في مدينة ستار بوكس، أحب تلك المدينة، فرغم كل القوانين الصارمة إلا أنها تبقى الأفضل دائمًا، لكن اليوم أردت أن أستجم فذهبت عند حدود المدينة وجلست هناك، سمعت صوتًا قادمًا من خلف الطحالب البحرية، أحدهم يطلب النجدة، ذهبت هناك فرأيت سمكة كبيرة يضيء ذيلها باللون الأسود، كانت تهجم على سمكة صغيرة.

يا إلهي، اللون الأسود! هذا لون غريب.

سبحت سريعًا لأقرب قسم شرطة، دخلت بدون استئذان، فقد كنت في حالة هلع، كان هناك بعض الضباط يتسامرون، حكيت لهم ما حصل، فنظر بعضهم لبعض بنفس النظرة، وفي عدة لحظات سمع صوت صفير في أنحاء ستار بوكس، خرج أكثر من خمسين سمكة من ضباط الشرطة للهجوم على سمكة واحدة.

سمعت أحدهم يقول بصوت غليظ:

- أين المجرمة؟

سبحت بأقصى سرعة لنفس المنطقة، وكانت هناك تتناول ما تبقى من فريستها، كان لون ذيلها أسود قاتمًا كالظلام، وضعوا لها القيود وسحبوها نحو المحكمة.

بقيت لعدة لحظات مذهولة من الموقف:

- الأسود! هذا لون عجيب.

****

دخلت السمكة المحكمة، كان هناك حشد من الأسماك، وقفت ممتثلة أمام القاضي، طرق الأخير مطرقته على المنضدة قائلًا:

- هدوء في المحكمة.

ثم أضاف بوقار:

- اسمك مريم؟

- نعم سيدي.

- لست من تلك المدينة.

- نعم سيدي.

- لقد ارتكبتِ ذنبًا لا يغتفر، ذنب لا يرتكبه إلا أكثر الأسماك إجرامًا على مر التاريخ، لقد تحول ذيلك للأسود.
وقف القاضي وأخذ يجوب في ممرات القاعة:
- الأسود يا سادة هو لون حقير، الأسود يجمع بين ثلاثة ذنوب: الكذب وإخلاف العهد والقتل.
قال آخر كلمة ممددًا بها فشهق الجميع شهقة مدوية، طرق القاضي بمطرقته مجددًا وقال:
- مريم.
- نعم سيدي.
- بماذا كذبت؟ وما العهد الذي أخلفتيه؟
كانت ستقول أنها لم تكذب ولم تخلف عهدًا، ولكنها تداركت الموقف قائلة:
- إذا قلت شيئًا خاطئًا فإن ذيلي سيزداد سوادًا، وبالتالي سيزيد الحكم عليّ، أنا، أنا قد وعدت صديقة لي ألا أؤذي أي سمكة، ولكني قد تناولت سمكة وكذبت على صديقتي وخلفت العهد.
أخذ القاضي يقرأ من لوح فيه هذا الحكم، في النهاية، حكم عليها بالحبس في زنزانة سوداء عميقة كالبئر لمدة ثلاث سنوات، ثم يصدر حكم بالقتل لها، جروها هناك بين هتاف أهل البحيرة الذين لم يعترضوا البتة على هذا الحكم، وأغلقوا عليها الزنزانة، أخذت تبكي كثيرًا، كانت تفكر بصوت مرتفع: "دائمًا ما أحدث الفوضى في أي مكان أذهب إليه، لقد آذيت جوليا ولم أحترم مشاعرها اللطيفة، والأرانب تكبرت عليهم، والآن أكذب وأخلف عهدًا وأقتل، لماذا أنا سيئة؟ لقد قتلني جميع من عرفني، ألن أموت وأحدث الفوضى في مكان آخر؟ فقط أُرمى في زنزانة سوداء كذيلي لمدة ثلاثة أعوام، ثم أقتل، يا رب ساعدني".
وبعد فترة من الزمان من البكاء المستمر، سمعت مريم صوتًا قادمًا من خلفها، كان يقول
"الكفن ثلاث والولادة ثلاث وما بعد النوم مرة".
إنها العجوز، التفتت اليها برجاء:

- لقد علمته، مت ثلاثًا وحييت ثلاثًا واستيقظت من غفلتي مرة، استيقظت من مشاعر التكبر وعدم احترام الآخرين، لن أكذب ولن أخلف عهدًا.
- لقد تعلمت الدرس إذا؟
- نعم، تعلمته.
- إذا هل تريدين العودة لمصر؟
- نعم، ولكن؟
- ولكن ماذا؟
- لقد تسببت بالإزعاج للكثيرين، يجب أن أصلح ما فعلت أولًا.
- رائع! لقد بدأت تفكرين بعقلك، وبدأت تفكرين كمحاربة.
- محاربة؟
- نعم محاربة.
- ولكن كيف سأخرج؟
- هناك صديقة عاملتيها جيدًا لن تتأخر عن مساعدتك.
فجأة سمعت صوتًا قادمًا من تحت الأرض، صوت حفر وطرق، كانت سام، خرجت فجأة من باطن الأرض.
- سام، لقد جئتِ من أجلي.
- نعم، هيا بنا لا وقت.
نظرت مريم حولها لتشكر العجوز ولكنها لم تجدها، اختفت ككل مرة، كانت سام تحمل دمية على هيئة سمكة شبيهة لمريم، وضعتها بإحدى زوايا الزنزانة وسحبت مريم داخل الجحر، ثم غطته بقطعة من القماش، وخرجا لحدود المدينة متخفين.
قالت سام:
- هيا سأحولك لبشرية وتعودين لموطنك.
أخبرت مريم سام أنه يجب عليها إصلاح ما فعلت أولًا، سألتها عن أهل السمكة التي تناولتها فأخبرتها أنها يتيمة وكانت تعيش بملجأ للأيتام، وأنها كانت هاربة.
- إذًا ليس هناك أحد لأعوضه عن موت السمكة؟

- لا، هكذا قالوا عندما بحثوا في سجلها.
راودت مريم فكرة سريعة، أخبرتها سام مرة عن قنديل بحر يأتي إلى المدينة كل عام مرة فيسبب الفساد، ولأن الأسماك صغيرة الحجم فلا تستطيع إيقافه، أخبرت سام أنها ستساعد أهل المدينة حتى يقبضوا على القنديل، ذهبت مريم الى ميدان مكتظ بالأسماك، وقفت على أعلى صخرة هناك وأخذت تنادي فيهم، كان ذيلها أسود، عرفها جميع الأسماك بأنها مذنبة بذنب ثلاثي، أراد بعضهم سحبها إلى قسم الشرطة، ولكنها صرخت فيهم:
- لن أتزحزح من مكاني وسأظل أهرب من السجن إلا إذا تكلمت مع الملك والملكة.
وصل الخبر للأخيرين وقابلتهما بعد عناء، أخبرتهما أنها تريد أن تتحدث مع الأسماك في ميدان يجمعهم كلهم، لبيا لها طلبها بعد إلحاح لشكهم أن الأمر خطير، وعندما اجتمعت الأسماك، أخبرتهم أنها ليست سمكة ولكن بشرية والبشر يأكلون اللحوم كغريزة فطرية، ولذلك أكلت السمكة بدون إرادتها.
كانوا يعلمون أن الأميرة سام لديها القدرة على تحويل المخلوقات، لذا فقد صدقوها، وحكت لهم قصة اصطياد سام لها، أخبرتهم أن البشر لديهم عقل فائق الذكاء وسوف تساعدهم بعقلها لتخلصهم من القنديل، وافق الجميع وفيهم الملك والملكة، وأما مكافأتها إذا نجحت، فإنها سوف ترجع بشرية وتترك البحيرة، وكان من الاتفاق أيضًا أنها إذا فشلت فلا شك أن العذاب سيكون ضعفين، كانت الخطة أن يحفروا خندقًا عميقًا حول أبواب المدينة، وكان من عادة القنديل دائمًا أن يدخل من أبوابها، ثم يغطون الخندق بقماش مشابه للون التربة، ويضعون قفصًا داخل الحفرة، حتى إذا جاء القنديل وقع في الفخ وتم اصطياده، هلل الجميع بسماع الخطة وبدأوا بالعمل.
بعد أن انتهى الخندق بأيام وتم تغطيته، جاء القنديل ينادي بالأسماك أنه وصل وسيتناولهم جميعًا، ولكن ما أن دخل من الأبواب حتى وقع في الفخ، فرح الجميع وأقاموا احتفالًا عظيمًا، تم قتل القنديل به وتعليقه على أعتاب المدينة، بعد أن انتهى الاحتفال وقف الملك يلقي كلمة شكر لمريم، وودعت مريم سام،

تلك الصديقة التي أحبتها بكل مشاعرها، كانت سام تبكي بهستيرية.
-إذًا حان وقت الوداع.
- أرجوكِ يا سام، لا أتحمل أن أراكِ تبكين في آخر لقاء لنا.
- أنت حقًا صديقة مذهلة، أعترف أنني أنانية، لقد أردت أن تكوني هنا للأبد بقربي، ولكن هذا لن يحدث.
- كم أردت ذلك، ولكنني لن أنساك أبدًا يا سام، لن يحدث ذلك أبدًا، وأنت أيضًا لن تفعلي، ستكبرين سريعًا وتصبحين ملكة هذه البحيرة، ستكونين عظيمة يا سام.
سهمت سام للحظات واحتضنتها وأخرجت شيئًا لتهديه لمريم.
- إنها نصف لؤلؤة، النصف الآخر معي، أتمنى أن تهتمي بها جيدًا.
ابتسمت مريم بدموع صادقة:
- سأفعل.
حولت سام مريم لبشرية، وقفت بجوار البحيرة فرأت كلبًا سائرًا يحمل سمكتين على ظهره، ويركض نحو الجنوب، ابتسمت وشدت نصف اللؤلؤة بقبضة يدها، تناولت حقيبتها التي كانت قد تركتها بجانب الشجرة، وعادت تشق طريقها لقرية "مانيلا" عبر السور الذي كانت تمر منه كل مرة، وعندما مرّت منه اختفى كالعادة، ولكن مريم لم تتفاجأ، فقد تعودت على ذلك، فهناك ما زال عليها إصلاح ما أفسدته.

(٨)

وصلت مريم لمدينة "مانيلا"، كان الأرانب يعملون كالعادة، وقفت خلف الأشجار تراقبهم، لم يرها أحد منهم، ولكن صادف أنه كان هناك أرنب قادم من الغابة، عندما رآها تجمد جسمه، اقتربت مريم منه، فهرب إلى القرية وأخذ ينادي:

- مريم عادت، مريم عادت يا أهل القرية.

في عدة لحظات رأت مريم فوجًا من الأرانب حولها، كانوا مذهولين، ظن بعضهم أنها شبح مريم، فلقد رأوها تغرق بعد أن ضربوها، أخبرتهم مريم أنها لن تجيب على أسئلتهم أو تترك القرية قبل أن ترى الحكيم، ذهبت إلى الحكيم وحكت له قصتها، أخبرته أنها قادمة لتصلح خطأها، طلبت منه أن يسمح لها بالتحدث أمام كل الأرانب، وقفت على إحدى التلال وأخذت تخبرهم أنها نجت من الغرق. اعتذرت للحكيم أولًا، ثم لماندي -الذي كان فرحًا جدًا عند رؤيتها- اعتذرت لكل من آذته خاصة، ولكل أهل القرية عامة، بعد أن انتهيت من الحديث أكملت دهان وإصلاح باقي المباني التي كانت قد وعدت الأرانب أن تكملها بعد فوزها بالانتخابات ولكنها لم تفعل، وها هي ذا توفي بوعدها، ولكن هذه المرة لا تبغي منصبًا أو حكمًا، انتهت من ذلك وودعت أهل القرية جميعًا، قال لها الحكيم جملة قبل أن تغادر، قال لها:

- لقد بدأتِ تفكرين بعقلك.

كانت نفس الجملة التي قالتها العجوز، عبرت السور مرة أخرى وأصبح الأمر سهلًا،

فكانت عندما تريد الوصول لمكان ما تتخيل وجود السور فيظهر وعندما تمر يختفي، وكان لا يراه أحد غيرها، وكأنها وجدت قوتها كمحاربة.

ووصلت لقصر جوليا، طرقت باب القصر، لم يجب أحد، فدخلت، بحثت في

أنحاء القصر ولكنها لم تجد لها أثرًا.
كان القصر عاتمًا ومتربًا أكثر من المرة السابقة، بحثت عنها في الفناء الأمامي ولم تجدها أيضًا، بدأ الشك يتسرب في عقلها، توجهت نحو الفناء الخلفي واليأس قد انتزع منها أمل العثور عليها، ولكن فجأة استكان جسدها واشتعل رعبًا، كانت هناك نائمة على الأرض والحشرات تلتف حول جسدها، لم تكن نائمة بل ميتة، أو بالأحرى منتحرة، كان جسدها ملطخًا بالدماء الداكنة، والتي يبدو عليها أنها قديمة المدى، كانت نافذة غرفتها التي في الدور الرابع مفتوحة، أما باقي النوافذ كانت مغلقة.
دمعت عينا مريم وأجهشت بالبكاء، دفنتها وجلست بعيدًا عن القصر تبكي، لقد انتحرت بعد أن قتلت من عشقتها حد الجنون، أخذت مريم تبكي بجنون.
"كنت سأصحبها معي لبيتي وأجعلها أسعد مخلوقة في الكون، ولكنها لم تتحمل الوحدة، أنا السبب، أنا سيئة، أنا حقيرة".
أخذت تبكي طويلًا، حتى سمعت صوت العجوز مجددًا:
- لما الحزن يا مريم؟
- أنت تعلمين، فقد كنت دائمًا بالجوار.
- في رحلتك ارتكبتِ الكثير من الأخطاء يا مريم، ونحن نخطئ ونتعلم، لقد تعلمت وبادرت بتصحيح أخطائك، هذا رائع! لكن من اللازم أن تعلمي أن تلك الأخطاء التي ترتكبينها تترك أثرًا. في بعض الأحيان لا نستطيع محو تلك الآثار، يجب عليك استعمال عقلك بالتفكير قبل كل كلمة جارحة تخرجينها.
- أنا سيئة جدًا، لا أستحق أن أعيش، لقد، لقد قتلت نفسًا طيبة جدًا.
- لا يا مريم، العلم أول مخارج الجهل، ولقد علمت الآن، هيا يا مريم، عودي لموطنك، ستجدين جوليا هناك.
جففت مريم دموعها بساعدها.
- أتعنين بمصر؟
- نعم، لكن عليك أن تري شيئًا أولًا.
أخرجت العجوز كرة بلورية ومسحت عليها فأظهرت غابة البحيرات، كان هناك

الكثير من البحيرات يعلوها غشاء شفاف يبدو أنه ممتلئ بالماء، كانت الأسماك تسبح عند هذا الغشاء وتتسامر، رأت مريم مختلف الكائنات يدخلون الغابة ويتسامرون مع الأسماك بسهولة عبر هذا الغشاء.
مسحت العجوز يدها مرة أخرى فرأت قصر جوليا ممتلئًا بالبشر، كانت الجبال الخضراء حوله قد اختفت وظهرت مكانها المدن والقرى من مختلف الكائنات.
مسحت العجوز يدها مجددًا فرأت قرية الأرانب مجاورة لقرية بها قطط وأخرى للطيور وأخرى يسكنها الفئران.
وكان الجميع يهتفون باسم تلك المحاربة "مريم، مريم، مريم".
مسحت العجوز على البلورة فانطفأت.
ابتسمت لمريم وقالت:
- كل هذا سيحدث فور رحيلك يا محاربتنا العظيمة، وهناك غيرها الكثير من المدن والقرى والمناطق والبحيرات في المنطقة الشمالية، لقد انفك السحر في تلك المنطقة بفضل الله ثم أنت، أنت محاربة بحق.
- ولكن أنا لا أفهم أي شيء، لم أفعل شيئًا حتى لأنقذ الوضع هنا.
- اسمعي يا مريم، سأعترف لكي بشيء ما، أتعلمين تلك الملكة الساحرة؟
- نعم، ما بها؟
- أنا هي.
- ماذا؟!
- اسمعيني حتى النهاية من فضلك، عندما كنت في مقتبل عمري أحببت رجلًا ثم لم أتزوجه لأنه رفض ثم تعلمين ماذا حدث، وضعت سحرًا يفرق بين المنطقة والأخرى، كان الجميع يظنوني ميتة ولكنني لم أكن كذلك، لقد حاولت كثيرًا فك السحر ولكن لا فائدة، لقد أفنيت عمري أحاول ولكنه كان مثل الألماس لا ينكسر، كان السبيل الوحيد هو جعل فتاة غيري من خارج بلاد كلودا تقوم بفك السحر، والسبيل لفعل ذلك كان أن تجد قيمة مفقودة.
في المنطقة التي وقعت بها، فأنت وقعت بالشمال وغيرك من المحاربات قد وقعوا في مناطق مختلفة، كان منهم من ينجح ومنهم من يموت، كنت أنقذ

هؤلاء الفتيات من الغرق، فأسحبهم على أرض هذه البلاد ليتموا مهمتهم مقابل ضمان عودتهم إلى موطنهم.

- هذا ظلم.

- لا يا عزيزتي، كنت ستكونين ميتة لا محالة، إتمامك للمهمة هو السبيل الوحيد لإنقاذك، عندما جئت هنا كانت مشكلتك ظلم البشر حولك، لا تحترمين أحدًا، تؤذين الآخرين، وتسخرين منهم، كنت تظلمينهم بالمعنى الأصح، وفي المقابل فقد عانت المنطقة الشمالية من الظلم لفترة طويلة، وقد ساعدت بعض سكانها على رفعه، ولذا فقد حررت كامل أراضي تلك المنطقة، رغم أنك قابلت فقط ثلاث مناطق في هذه الرحلة، ولحسن حظك أنك قابلت الصنف الأول من الكائنات.

"طيبون ويبغضون الظلم أو ظالمون ويفتكون بالطيب".

أتتذكرين، لقد قابلت أول صنف فقط وهذا لأنهم طيبون للغاية ويحتاجون درسًا في الدفاع عن أنفسهم ضد الظلم والبغي، لقد ساعدتيهم، أنا حقًا أشكرك، وأنا فخورة بك لأنك علمت أنك مخطئة وسارعت بإصلاح خطئك.

- أنت ملكة جيدة بعد كل شيء.

ابتسمت الملكة وقالت:

- شكرًا لك، والآن انظري إلى الجانب الأيمن.

نظرت مريم هناك، كان هناك سلّم شاهق الطول، كان مثل ناطحات السحاب، وفي منتصفه تلك الغيمة التي رأتها عند الغابة، فكما وصفتها، كانت تشبه حوض السمك، كانت تتسع شيئًا فشيئًا. نظرت الملكة إليها بود ومدت يدها قائلة:

- أتمنى أن تقبلي مني هذا التذكار.

كانت دائرة من الذهب المرصع منحوت عليها صورة مصغرة دقيقة لسور داخله مناطق عديدة.

- ما هذا؟؟

- إنها بلاد كلودا، اهتمي بها جيدًا.

أضافت:
- هيا اصعدي.
- السلم؟ هل يوصلني إلى مصر؟؟
- نعم عزيزتي، هيا اصعدي، الجميع قلق عليك هناك.
- أنا حقًا لا أعلم كيف أشكرك، لقد....
- هششش. مريم، لقد ساعدتك لأنك بحاجة إلى تلك المساعدة، فإذا أردت حقًا شكري يمكنك أن تسدي إلي خدمة، إذا قابلك أيًا كان في حياتك ويطلب منك النجدة فأنجديه ولا تقفي حائلًا بين نجاته مهما كان.
احتضنتها مريم بشدة وصعدت درجاته، كان شاهق الارتفاع، وصلت لنهايته. كان سطح ماء، رفعت يدها لتعبر السطح.
وبعد ذلك.

----

٩ (النهاية)

٥:٣٠ مساءً مستشفى الأمل الحكومي.
كان الرواق ممتلئًا بالأطباء والممرضين، صاح أحد الأطباء بعد خروجه من إحدى غرف المشفى: غرفة رقم ٢٩، المريضة تصارع بين الحياة والموت.
أخذ ينادي أشهر الأطباء، حمل الممرضون المريضة على سرير متحرك وتوجهوا نحو قسم الإنعاش، كانت الأم تقف هناك وتبكي بصمت، تدعو الله وكلها أمل أن تنجو ابنتها، مكثت المريضة في الغرفة نصف ساعة حتى أقبل الطبيب، ركضت الأم نحوه واضعة يدها على صدرها:
- دكتور، طمني، هل ابنتي بخير؟ هل حدث لها مكروه؟
- اهدئي يا سيدة، ابنتك بخير، لقد فتحت عينيها لأول مرة منذ عشرة أيام، ولكنها أغلقتها مجددًا ونامت، تحتاج إلى راحة.
تلألأت عينا الأم بدموع الفرح:
- الحمد لله، الحمد لله، ربي لك الحمد حتى يبلغ الحمد منتهاه.
- ولكن يجب أن تعلمي أمرًا يا سيدة أماني.
- ماذا، هل مريم بخير؟ هل أصابها مكروه؟
- سيدة مريم، لقد أخبرتك أنها بخير، هي فقط كانت تبكي حينما كانت بغرفة الإنعاش، كانت تردد "جوليا ماتت وأنا السبب". ولكن سرعان ما أخذت تبتسم ومدت يدها نحو الأعلى وكأنها تمسك بشيء.
- أنت تعلم يا دكتور أنها كانت دائمًا ما تهذي بكلام غريب في غيبوبتها بعد أن أُنقِذت من الغرق.
- ولكن هذه المرة كانت تبكي بحرارة، وهذا يدل على تخيلها شيئًا ما جعلها تُصدم، يبدو أنها طوال فترة غيابها عن الوعي كانت تنسج قصة في خيالها وتتفاعل معها بحواسها وأحيانًا عن طريق الحديث.

- نعم، هذا ما قاله لي دكتور أحمد، المتابع لحالتها، هل أستطيع الدخول الآن؟
- نعم، على الأحرى أنها ستستفيق بعد دقائق، إن ما حصل لتلك الفتاة معجزة بحق.
ابتسمت له السيدة أماني وركضت نحو غرفة ابنتها.

*****

وبعد ذلك،
فتحت مريم عينيها شيئًا فشيئًا، كانت مستلقية على سرير ناعم ناظرة للسقف، سمعت صوتًا تعرفه، كانت السيدة أماني تمسح على شعرها بحنان.
- مريم حبيبتي، لقد استيقظتِ.
أجهشت مريم بالبكاء واعتدلت في جلستها بصعوبة، احتضنت والدتها، وأخذت تبكي.
- أمي، لما تركتيني؟ لقد كنت في عالم كبير وحدي.
- حبيبتي أنا هنا، بجوارك ولن أتركك أبدًا.
- أين أنا؟
- أنت في المستشفى، لا تقلقي يا مريم، أنت بخير، لقد قال الدكتور أن حالتك قد تحسنت كثيرًا.
ابتسمت مريم وسألت بوهن:
- حقيبتي، أين حقيبتي يا أمي؟
- عزيزتي، لقد علقتها على النافذة هناك، انظري.
ألقت مريم نظرة عليها ثم سألت والدتها بتوتر:
- أمي، أين المحتويات التي كانت في الحقيبة؟
- لم يكن بها شيء غير الفطائر التي خبزتها صباح خروجك إلى النهر، ولكنهما كانتا قد أصبحتا قطعًا هشة مفتتتة داخل الحقيبة، فغسلتها ووضعتها هنا حتى تستيقظي، أعلم أن تلك الحقيبة غالية عندك.
- أمي، كيف ذلك لقد أكلت واحدة وأعطيت الأخرى لجوليا، أمي والطائرة؟ أين هي؟

- حبيبتي، لا تقلقي، إنها بخير، لقد وجدها أبوك حينما كانوا يبحثون عنك، لقد وجدوها يا مريم، إنها بخير.
صرخت مريم بجل ما في نفسها من قوة:
- ولكن كيف؟ أنت تكذبين يا أمي، أليس كذلك؟ لقد ذهبت هناك وأعطيت الطائرة للأرانب، والفطائر لجوليا، نعم لقد فعلت.
أخذت السيدة أماني تبكي محاولة أن تهدئ ابنتها:
- أجل لقد فعلت، معك حق، أنا فعلًا كنت قد نسيت، إن الطائرة مع الأرانب، والفطائر إنها مع جوليا.
رأت مريم تمسك رأسها وتصرخ ثم سكنت فجأة وفقدت الوعي، أجهشت والدتها وأخذت تمسح على رأسها مشفقة على حالتها، كانت على وشك الذهاب إلى الطبيب ولكنه كان قد دخل فجأة.
- دكتور.
- فقدت الوعي؟
- نعم، لقد...
قصت له السيدة أماني عن حديثهما حتى فقدت الوعي، فقال الطبيب صائحًا:
- سيدة أماني، لقد أخبرتك أن الانفعال ليس جيدًا أبدًا لحالتها الصحية، كان يجب ألا تخبريها، لا شيء أبدًا.
دمعت عين الأم بحزن.
- ومن كان يدريني أن تلك الأمور ستثير انفعالها، لقد أصرت وكأنها تريد الاطمئنان فطمأنتها من وجهة نظري كأم.
ثم أجهشت بالبكاء، في حين أخذ الطبيب ينظر إلى نبض قلبها وطمأن والدتها ثم خرج، دخل السيد يوسف وأولاده وجلسوا بجوار مريم الغائبة عن الوعي.

****

بعد عدة ساعات استيقظت مريم، اتبعت السيدة أماني أوامر الطبيب بألا تخبر مريم عن أي شيء تسأله، كانت فقط تقص عليها الأمور المبهجة، بعد مرور أسبوع تحسنت حال مريم فبدأت والدتها تشرح لها ما حدث بهدوء، أخذ منها

استيعاب الموضوع يومًا كاملًا، كانت تغرق في ذلك اليوم الذي ذهبت لتحضر فيه الطائرة من النهر، لكنها لم تسقط في النيل وتعيش هذه المغامرة، كانت ابنة الجيران قد ذهبت عند النهر ذلك اليوم ورأت مريم تغرق، طلبت النجدة وأخبرت والدي مريم بالخبر، ثم نقلوها للمشفى، أخبرتها أمها أنها كانت غائبة عن الوعي لمدة عشرة أيام، كانت تهذي بكلام غريب، كثيرًا ما كنت تضحك وقليلًا ما بكت، كانت تستخدم يديها أحيانًا فترفعها وتشير بهما. أخبرتها أيضًا أن تفسير ما حدث هو حدوث خلل للدماغ بعد أن بقي لفترة طويلة تحت الماء، أسمت مريم حالتها كونها كائن بين الأحياء والأموات.

****

وكان لمريم وجهة نظر فيما حدث.

"كان أبي ذاهبًا لحجز تذاكر العلاج في بلاد أجنبية ولكنه عندما علم أنني بخير عاد أدراجه، بكى إخوتي علي كثيرًا، وأما أقاربي وأهلي وجيراني فقد كانوا يوميًا يزورونني في المشفى،

أدركت حينها أن لدي أقارب وأهلًا أحبوني وكرهتهم، عاملوني بلطف وآذيتهم، تواصلوا معي وقطعت الأواصر تجاههم، كنت كائنًا أشبه بالشيطان، كانت تلك التجربة العميقة التي مررت بها أشبه بالمنبه الذي بات يرن طويلًا، لم أكن ذلك الشخص الذي يستمع لرناته المتواصلة، بل كأنني كنت أحمله وأرميه بجل قوّتي نحو أقرب سلة مهملات، لم أكن ذلك الإنسان الذي يطفئه وينظر لزلاته ليصلحها، وربما لم أكن إنسانًا بالأصل.

حان موعد خروجي من المشفى، وصلت للبيت واستقبلني كل أصدقائي وأقاربي، كان يومًا دافئًا في المنزل، وقد لاحظ الجميع تغير سلوكي وتصرفاتي نحو الأفضل. دخلت غرفتي وكانت هناك حقيبتي، وضعتها أمي عند النافذة لتجف، فتحتها فلم أجد فيها كتاب "حبة من توت".

الآن تذكرت، حتما أنا لم أشتره.

وجدت طائرتي بالجوار، كانت هناك، أنا لم أعطها للأرانب لسقاية النباتات.

شعور غريب راودني، حتى مع عائلتي في المنزل، شعرت أن نفسي خالية من

السعادة، شعور بالوحدة.
فرشت سجادة الصلاة وأخذت أصلي ما فاتني.
هذا حتمًا ما ينقصني".

*****

كانت فاطمة تساعد والدتها بإعداد مائدة العشاء.

كان البيت يرقص لأول مرة منذ عشرة أيام، منذ عشرة أيام كانت مريم فظة وغليظة المعاملة، ولكن الآن أصبحت أكثر لطفًا وهدوءًا، كذلك ظنت فاطمة.

سمعت صوت والدتها الحنون تنادي:

- فاطمة، أخبري مريم أن تأتي لتناول العشاء.

دخلت فاطمة غرفة مريم فرأت ما أذهلها، ذهبت تركض عند والدتها في المطبخ لتخبرها بالخبر.

- أمي، أمي، أمي، احزري ماذا؟؟

- ماذا يا صندوق المفاجآت؟

قالت فاطمة بلهجة المتحدث الذي يحمس مستمعيه:

- لقد رأيتها تصلي في غرفتها بدون أن تطلبي منها ذلك.

- مريم؟

- آها.

انفرجت أسارير السيدة أماني وهمست:

-الحمد لله الذي هداها.

****

دخلت مريم بخفة إلى المطبخ، وقالت بمرح:

- هل لي أن أساعد ملكة قلبي بإعداد العشاء؟

- مريم، حبيبتي، أنت متعبة، اذهبي واجلسي وفاطمة ستساعدني.

قالت مريم بغضب مصطنع:

- ولم فاطمة بالذات؟ أنت تميزينها عني يا أمي.

قالت ممسكة طبق الفول:

- وهل تسمين العمل تميزًا؟
قالت الوالدة والسعادة تكاد لا تجد متسعًا في قسمات وجهها:
- هيا يا بنات، أبوكم سيترك البيت ويتعشى خارجًا إن لم نسرع الآن.
عندما انتهت العائلة من تناول وجبة العشاء، أعدت مريم الشاي وجلسوا يرتشفونه في شرفة المنزل، أخذوا يتسامرون ويضحكون، أخبرت مريم ياسر أنها أصلحت سيارته، فابتسم لها واحتضنها، ثم فاجأهم الأب أنه سيأخذهم في رحلة إلى القاهرة، كانت تلك الليلة من أجمل الليالي في بيت السيد يوسف وجدي، مثل تلك اللحظات لا تعوض بثمن.

*****

في يوم الإثنين، كانت مريم في غرفتها حينما سمعت صوت أمها تطلب الدخول، فتحت الباب لها، أخبرتها أن الفتاة التي رأتها تغرق وطلبت النجدة تود أن تراها:
- حقًا، وأين هي؟
- إنها في الصالة، سأخبرها أن تدخل.
قالت مريم قبل أن تخرج والدتها:
- أمي.
- ها؟
- أتذكرين ذلك اليوم في المشفى عندما أفقت؟
قالت والدتها بتعجب:
- نعم، ما به؟
- لقد نعتك بالكاذبة، أنا حقًا آسفة، لم أقصد ذلك البتّة.
ابتسمت والدتها ثم خرجت.

*****

دخلت الفتاة الغرفة، كانت جميلة جدًا، أما وجهها فقد كان ساحرًا كالقمر ليلة اكتماله، ابتسمت لمريم وحيتها.
- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، مرحبًا ببطلتي الصغيرة.
- حمدًا لله على سلامتكِ.
- سلمك الله يا عزيزتي، لقد رأيتك من قبل، أليس كذلك؟
- نعم، أنا أسكن في البيت الثالث من ناحية يمين منزلك،
كنت أراك دائمًا وأسلم عليك ولكنك دائمًا ما كنت تتجاهليني.
- أنا حقًا آسفة، لم أقصد أن أتجاهلك، لم تقولي لي ما اسمك؟
- لقد أخبرتك من قبل، أنا جوليا.
- جو، جو، جوليا.
- ما الخطب؟
- أتعلمين يا جوليا، لقد حلمت حلمًا كنت بطلته.
- أنا؟
- نعم، كنت أميرة تعيشين بقصر.
- لقد رسمت شبيهة بهذا، في يوم رسمت لنفسي لوحة وأنا أميرة بالغة وأعيش بقصر على جبل، كنت تمرّين قرب منزلي، وكنت أول شخص رأيته بعد أن أنهيت اللوحة، أريتك إياها، لكنك قلتِ لي إنها أسوء لوحة رأيتها في حياتك، بكيت كثيرًا يومها.
- مهلًا، جوليا، هل احتفظتِ باللوحة؟
- نعم، إنها في حقيبة ظهري.
أخرجت جوليا اللوحة، فهي فنانة، وقد رسمت ما رأته مريم، رسمت جوليا البالغة التي قابلتها وقصرًا وفناء على جبل، ربما هذا ما دعا مريم لتتخيل قصة جوليا، تذكرت وقتها حينما أخبرتها العجوز أنها سترى جوليا في موطنها.
- مريم، مريم، مريم، بماذا تفكرين؟
- خطرت لي فكرة يا جوليا.
أحضرت دفترًا من الدرج وأمسكت بالقلم.
- ماذا ستكتبين؟
- سأكتب رواية.

- وما الرواية؟
- هي قصة طويلة، سأسميها "تحت النيل".
- رائع.
- وأنتِ يا جوليا بطلة جميلة في قصتي.
- ولكن لماذا أنا؟
- لأنك مميزة.
اعتلى وجه جوليا حمرة زادت براءتها.
- شكرًا.
ابتسمت مريم بود وبدأت تخط مقدمة روايتها.
"على أرض مصر، وتحديدًا في مدينة سوهاج، وعلى جانب من جوانبها الزراعية المنعزلة؛ كُتب قدر جديد.
كانت المحاصيل الزراعية تحيط بالمنازل في تلك المنطقة، وفي منطقة أبعد قليلًا كان هناك مصدر الري الأول بمصر وشريان الحياة بها، نهر النيل.
كانت عائلة يوسف وجدي يسكنون في بيت هناك، يوسف نبيل بخُلقه وسيم بخَلقه، وأما زوجته أماني فهي ربة منزل مثالية، بشوشة الوجه جميلة الطلعة، يحبها كل من يعرفها، أما ياسر ابن السبعة أعوام وأخته فاطمة التي أتمت العاشرة منذ شهرين فهما نعم الولدين البارّين بوالديهما.
وفي إحدى غرف ذلك المنزل الدافئ، هناك دائمًا ما يجعله متناقضًا وغريبًا".
- وثم.
- وثم ماذا يا مريم؟
- وثم، وثم، وثم تبدأ القصة يا جوليا.

تمت

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub